

صدق يقى  
لا تأكل نفسك

عبدالوهاب مطاوع

# صد يقى لاتأكل نفسك

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

الطبعة الثانية

١٤١١هـ - ١٩٩١م

الطبعة الثالثة

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

الطبعة الرابعة

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الطبعة الخامسة

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

الطبعة السادسة

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر

تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

دار الشروق

## آلام زعتر

كان صديقي في فترة الدراسة الجامعية يحب أن يسمى نفسه « جوبتر » تشبهاً بإله الضوء عند الرومان .. فكان إذا ضايقنا حورنا اسمه المفضل إلى زعتر وادعينا أنه إله الشعر عند المجوس ! .

وكان صديقي يكتب الشعر والقصة القصيرة ولا يخلو من موهبة لكن موهبته الأساسية كانت في قدرته على الحلم .. فلقد كان يحلم دائماً لنفسه بمستقبل سعيد يحقق فيه ذاته ويتزوج ممن سوف يحبها وتتفق ميولها مع ميوله فيمضيان العمر معاً يتبادلان الحب ويتطارحان الشعر ويهجان في عالم الأدب والموسيقى والمثل العليا وكل الأشياء الجميلة في الحياة .

وكان فعلاً إنساناً مثالياً ملتزماً أخلاقياً . وينشد الجمال في الوجوه والسلوك والعلاقات الإنسانية وكانت تجمعني به ميول مشتركة فكنا نقرأ الأعمال الأدبية الشهيرة معاً ونخلق دائماً في دنيا نجيب محفوظ في رواياته .. ونحب أبطاله ونشفق عليهم مما يصنعه بهم الزمن . وغرقنا لسنوات في قراءة أعمال شكسبير حتى أصبحت شخصياته تترأى لنا في أحلامنا وتعايشنا في أحاديثنا ومسامراتنا .

وكان صديقي « جوبتر » رفيق الإحساس سريع التأثر وحين وقعت في أيدينا رواية الشاعر الألماني العظيم جوته « آلام فتر » قرأناها معاً أكثر من مرة وذرفنا الدمع على بطلها الشاب حين انتحر ياساً من بلوغ أمله في حبيبته شارلوت

الغلاف للفنان مصطفى حسين

الجميلة ، وبالفرد صديق كعادته في تأثيره بها فأعاد قراءة الفصل الأخير منها عدة مرات وفي كل مرة يحنق بالدموع ، حتى خشيت عليه أن تصيبه لعنة هذه الرواية الرومانسية التي أصابت بعض الشباب الألمان في القرن التاسع عشر فقلدوا « فرتر » وأنشأوا حياتهم بنفس طريقتهم ، إلى حد أفزع جوتة فكتب قصيدة شعري يقول فيها إن روح « فرتر » تنادي كل شاب قائلة له :

« كن رجلا وافهمني ولا تتبع خطواتي »

أي أفهم مأساتي واحزن لمصيري ولكن لا تقلدني في الانتحار والموت لأنك تعيش في الواقع وأنا أعيش في الخيال ، والخيال شيء آخر . !  
ثم مضت بنا الحياة وتخرجنا في الجامعة وعملنا وبدأنا معركة إثبات الذات وصديقي مخلوق كما هو في رومانسيته ويرفض أن ينزل إلى أرض الواقع . ويزورني من حين إلى آخر ليقرا على قصيدة أو قصة قصيرة كتبها ثم غاب عني فجأة عدة سنوات وجاءني فأحسست أن شيئا في روحي قد تغير .. فلم يقرأ على شعرا ولا قصة وحين سألتها عنها قال لي إنه ملل الكتابة ولم يعد يكتب منذ عامين أما القراءة فما زال يقرأ من حين إلى آخر ولكن بلا حماس !

ثم غاب سنوات أخرى وجاء يزورني ففوجئت بأنه قد تزوج واهتممت بأن أعرف كيف تزوج إليه الضوء القديم فروى لي ببساطة أنه تزوج بلا حب من فتاة غير متعلمة وليست جميلة تعرف على أبيها خلال تردده على الهيئة التي يعمل بها صديقي لإنهاء بعض معاملاته وأنه ساعده في ذلك فدعاه الأب لتناول الشاي في بيته ورأى ابنته فتقدم لخطبتها ورحب الأب به ، ثم تزوج في شقة في نفس البيت الذي يملكه الأب وبدلا من أن يجذب زوجته إلى عالمه القديم اجتذبتة هي إلى دنياها الواقعية فنسى الشعر والأدب وكل شيء .

وغاب صديقي مرة أخرى ثم عاد إلى شخصا غريبا له شارب ضخم وهو من

كان يكره الشوارب ويتندر عليها ويضع على عينيه نظارة مذهبة ويرتدي خاتمين ذهبيين في يديه ، ولم أكد أسأله عن أحواله حتى تطوع هو ليروي سر مظهره الجديد فقال لي ببساطة إنه طلب من زوجته أن ترجو أباهما أن يعطيها نصيبها من ثروته وهو على قيد الحياة ، لكي يدعوا له بطول العمر ولا يتعجلا وفاته ! وأن الأب أدرك بنظرة واقعية للأمور أن زوج ابنته سيحول حياة ابنته إلى جحيم إن لم يحقق له مطلبه خاصة وقد أنجب منها ولدا وبنتين ، فاستسلم للأمر الواقع واشترى لابنته شهادات استثمار بمبلغ كبير وهدأت الأحوال لفترة لكن صديقي لم يتوقف عند ذلك فبعد فترة بدأ يضغط على زوجته لتتقل ملكية الشهادات إلى أبنائه لتكون تحت تصرفه فاستجابت له ، وبعد فترة من الزمن اكتشفت أنه قد باع معظمها وتاجر بلا حياة في العملة الأجنبية ولم يتورع عن الوقوف أمام البنوك كما يفعل صبيان تجار العملة لاصطياد الزبائن فبكت طويلا ورجته ألا يعرض نفسه وأسرته للخطر وأن يتصرف في المال كما يريد بشرط ألا يتورط في تجارة ممنوعة وكان قد جمع ثروة لا بأس بها فاتجه تفكيره إلى أن يدخل عالم بناء العمارات ، فاشترى قطعة أرض صغيرة في مدينة نصر وأعلن عنها فجاءه راغبو السكن بالمئات فاختر منهم من يأمن لهم وباعهم على الورق شققا ثم بدأ يبنى العمارة بأموالهم ، ورفض بجرأة غريبة أن يسلم العمارة لصهره وهو مقاول ووقف يباشر عمليات البناء بنفسه حتى انتهت خلال عامين وقع خلالها في مشاكل عديدة مع السكان .. ودخل قسم الشرطة لأول مرة في حياته ، وكاد يقدم إلى المدعي الاشتراكي لولا أن أنقذه صهره بتدخله وإجباره له على تسليم الشقق للسكان ! ومع ذلك فلم تخل حياته من المشاكل فلقد تصادم مع شقيق زوجته الذي اتهمه باستغلال شقيقته وأبيه وكاد الأمر يصل إلى أقسام الشرطة أكثر من مرة ، ولم يهدأ بعد فبدلا من أن يستثمر مدخراته في عمل يجيده وقريب من اختصاصه قرر أن يعيد لعبة العمارات معرضا

نفسه وأسرته للمغامرة من جديد .

سمعت قصته مذهولا وأنا أتساءل بيني وبين نفسي كيف يمكن أن تتغير شخصية الإنسان من النقيض إلى النقيض إلى هذا الحد .. وبأى دوافع ؟ إن ضغوط الحياة يمكن أن تغير بعض ملامح الشخصية ويمكن أن تدفع البعض إلى تقديم بعض التنازلات عن أفكارهم وأحلامهم القديمة ، لكن أية ضغوط تعرض لها هذا المثالي القديم لكي يتحول إلى نهم يسعى إلى الثراء بكل وسيلة وبلا اعتبار لأى شىء .

وجدت نفسى أسأله : هل وجدت سعادتك فيما تفعله الآن ؟ فأجابنى بمرارة : لم يمر على يوم سعيد منذ عشر سنوات فأنا مهووم دائما بما أريد .. وبى لا أستطيع الوصول إليه . وقتى دائما مشغول أتناول إفطاري خطفا لأخرج إلى العمل . وأسرق ساعات العمل فأغادره لقضاء أموري المختلفة وفي المساء أقابل المتعاملين معى حتى منتصف الليل ونادرا ما أتناول طعام الغداء أو العشاء مع زوجتى وأولادى . حتى يوم الأجازة الأسبوعية أخرج فيه لأجرب وراء مصالحي المختلفة وأتذكر وأنا ألث كيف كنا أيام زمان نجد الوقت الطويل لنقرأ معا رواية أو نتحدث عن الشعر والأدب .. وكيف كانت ليالينا تمضى فأتعجب من أين كان لنا كل هذا الوقت ؟ ثم قطع حديثه فجأة وأشار إلى أكوام الرسائل التى تحتل مكتبى وسألنى : هل تقرأ كل هذه الرسائل ، فقلت له : أقرأ معظمها فقال : مم يشكو أصحابها ؟ .

فقلت : يشكون هموم الحياة وغدر الزمان ومشاكل العلاقات الإنسانية والوحدة وكروب الدنيا العديدة .

ففوجئت به يقول لى وكأنه شخص لا علاقة له بالصديق القديم الذى عرفته أيام زمان : وهل هذه هموم ؟ إن الهموم الحقيقية التى تستحق الكتابة عنها هى

هموم أمثالى أنا .. لقد وضعت نصف ثروتي فى قطعة أرض ، والادارة الهندسية بالحق أعطتني ترخيصا ببناء سبعة أدوار فقط فى حين أن الربح الأمثل منها لا يتحقق إلا إذا ارتفعت إلى أحد عشر دورا ! .. إننى أكافح معهم إلى درجة أننى عرضت عليهم الرشوة فكادوا يطردوننى ويبلغون الشرطة عنى بحجة أن مخالفة الترخيص ستعرض العمارة للانهيار ! هذه هى المشاكل الحقيقية إننى أريدك أن تنشر مشكلتى هذه فى بريد الجمعة وأن تختار لها عنوانا مثيرا من عناوينك المميزة لكي يجذب أنظار الوزير المختص ويتدخل لحلها ! .

كان يتحدث إلى بهذا المنطق المادى الفج وأنا شارد الذهن بعيدا عنه إلى أيام البراءة والمثاليات والرومانسية وأستعيد صورته وهو يقرأ على السطور الأخيرة من رواية « آلام فرتر » وعيناه مغرورتان بالدموع ، وفكرت أن أقول له إننى لن أكتب قصتك لأن همومك ليست هموما إنسانية وإنما هموم تجارية وهموم الرغبة المحمومة فى الثراء واعتصار الثمرة حتى آخر نقطة فيها على حساب القيم وأرواح البشر ، وأن عليك إذا أردت حلا لما تتصور أنه مشكلتك أن تشكو بالطرق التقليدية للوزارة ، أو أن تشتري مساحة إعلانية فى أية صحيفة وتكتب فيها ما تريد ، أما بريد الجمعة فهو صوت من لا يستطيع أن يشتري مساحة إعلانية فى صحيفة ، وصوت من يحتاج إلى المشاركة الإنسانية وليس إلى المزيد من الربح والثروة على حساب أرواح البشر . فكرت أن أقول له كل ذلك لكنى تنهت إلى أنى أتحدث الآن إلى شخص جديد تقطعت الأسباب بينى وبينه إلى الأبد ولن أراه مرة أخرى ، فوجدت نفسى أقول له : ربما كتبت مشكلتك لكنى إذا نشرتها فسوف أختار لها العنوان الوحيد الذى يلح على خاطرى ليترجم حالك الآن بالمقارنة بالصديق القديم الذى كتته . فتهلل وجهه فرحا وسألنى : وما هو هذا العنوان ؟ . فقلت له على الفور : آلام زعتر ؟ .

## صباح الخير أيها الحزن

صحوت من نومي فوجدت نفسي حزينا بلا سبب سألت نفسي : هل أغضبتني أحد قبل أن أنام ؟ لا .. هل فقدت عزيزا فأحزنتني فقدته ، لا .. هل أغضبت صديقا فندمت على ذلك ؟ لا .. هل طعنني صديق في ظهري فألثمتني خيانتة ؟ لا ..

لماذا إذن هذا الحزن الشفيف الهادئ الذي يغلف أحاسيسي في هذا الوقت من الصباح ؟ ولم أجد جوابا مريحا فسلّمت بأنها زيارة عابرة من هذا الرفيق القديم الذي يطل عليّ من حين إلى آخر فيطيل زيارته أو يقصرها حسب الظروف ثم ينصرف إلى حال سبيله .

وقد علّمتني تجاربي أن أحسن استقباله وألاطفه حتى يرحل عني بسلام .. ومن وسائل في ذلك ألا أسأله لماذا جاء .. ولا متى سيرحل إذ ليس من حسن الأدب أن تسأل ضيفا حتى ولو كرهته لماذا جاء يزورك .. وإنما عليك أن ترحب به وأن تكرم وفادته وأن تتجاهل السؤال عن موعد رحيله إلى أن يهّم بالانصراف فتلحّ عليه في الرجاء بأن يبقى حتى موعد الغداء .. فيعتذر .. وترجو فيعتذر ثم تضطر أسفا إلى قبول اعتذاره .

هكذا جلست بين يديه أحتسى القهوة وأفكر .. ثم استأذنته بعد قليل في سماع شيء من الموسيقى يناسب المقام .. فانسابت أنغام قطعة من الموسيقى الشرقية التي

تثير الشجن هي سماعي العريان من مقام البياقي .. وأشعلت سيجارة وقدمت له مثلها ثم غرقت في أفكاري .. إلى أن بدا عليه أنه يهيم بالقيام فألححت عليه في الرجاء بأن يتفضل بقبول دعوتي للغداء وربما للعشاء أيضا لكنه اعتذر بأنه مرتبط بموعد هام فودعته حتى باب الشقة واعتذرت له بأن المصعد ما زال معطلا ووقفت على السلم أودعه ثم خطر لي وقد أصبح خارج مسكني أن أتجاوز حدود اللياقة قليلا معه وأسأله عن سر زيارته المتكررة لي في الفترة الأخيرة خاصة في الصباح فاستند إلى « الدرايزين » وقال لي بكبرياء : إنني لا أزور أحدا بغير دعوة .. فقلت : وهل دعوتك ؟ قال نعم ! . قلت : كيف وأنا لم اتصل بك ولا أعرف لك عنوانا ؟ فقال : دعوتني في كل مرة زرتك فيها بغير اتصال حين تتجمع داخلك سحب الاكتئاب وتضيق ببعض مآثره فلا تنفّس عن نفسك بإعلان ضيقك وحين تكتم مشاعرك لكيلا تغضب الآخرين وحين تمضي نهارك وليلك بين الأوراق والمشاكل لا ترفع رأسك إلا لتحدث في عمل .. ولا ترى من الشوارع إلا الطريق من بيتك إلى عملك وبالعكس ، ومن الدنيا إلا أصحاب المشاكل والمهمومين ، وحين تلهث دائما وصدرك مشغول بأمر ينبغي أن يتم وأمر لم ينجز بعد وغاية لم تتحقق وحين تكون في حالة لوم مستمرة لنفسك تحسّ معها أنك كنت تستطيع أن تفعل كذا لكنك لم تفعل أو فعلت ولكن ليس بالمستوى الذي تتمناه وحين تحس بأنك عاجز في كثير من الأحوال وتتمنى لو كانت لديك قدرات خارقة تحل بها المشاكل وتلبّي بها كل الرغبات ، وهكذا تتجمع السحب ببطء داخلك فأجد في بيتي بطاقة موقعة منك بالخبر السري تقول لي فيها « تفضل بزيارتي » فألبي نداءك رغم كثرة مشاغلي وارتباطاتي ! .

دهشت مما قال وقلت مدافعا عن نفسي : لكنني لست كما تصوّرني فأنا إنسان متفائل بطبعي وأدعو للتفاؤل وللكفاح في الحياة وأؤمن بأن حياة الإنسان من

صنعه .. وأن الحياة إرادة ولا أعنى أبدا فشلى على الحظ كما يفضل البعض : لكنى لا أنكر دوره فى الحياة ، فأنا أو من بالحظ وبالقدر والنصيب وأومن أيضا أنها ليست كل شىء وأن الجانب الأكبر من نجاح الإنسان أو فشله يتحملة الإنسان وحده .. لهذا فإنى أحس دائما بأنه لاحد لقدرة الإنسان لو صحَّ عزمه . وأطرب كثيرا لحديث الرسول الكريم « لو تعلقت همه أحدكم بالثريا لثألها » وأومن بأن على الإنسان أن يؤدى واجبه ويرضى ضميره ثم يترك الأمر بعد ذلك لله عز شأنه يصرفه كيف يشاء ، لأن المهم هو ألا يقصر الإنسان فى حق نفسه أما المستقبل فبيد الله وحده كما أنى أيضا من المؤمنين بأن الإنسان يستطيع أن يبدأ من جديد فى أية مرحلة من العمر .. وأن يصنع من الفشل بداية جديدة للنجاح وأن يطور من نفسه دائما واروى لمن يسألنى من الشباب أن محمد على مؤسس مصر الحديثة بدأ يتعلم العربية وهو فى الخامسة والأربعين من عمره وأن النابغة الذبياني قال الشعر لأول مرة فى حياته وهو فوق الستين ، وأن الفيلسوف الألماني شوبنهاور فاجأته الشهرة وهو يقترب من السبعين ، وأن الفيلسوف أفلوطين الذى ولد فى أسىوط وعاش فى روما لم يبدأ الكتابة إلا فى سن الثامنة والأربعين بعد أن أكمل دراسته واكتملت له فلسفته التى عرفت بعد ذلك بالأفلاطونية الحديثة .

وأقول دائما لزوارى من الشباب ولنفسى قبلهم إن الدنيا دائما تأخذ وتعطى ، وأن العقبات لا تحول دون النجاح ، وكثيرا ما تكون الدافع القوى له وأن المهم دائما هو أن نشترك فى مباراة الحياة بكل طاقتنا لكى نكون من الفائزين لأنك لن تفوز فى أى مباراة إلا إذا كنت من اللاعبين أما الانسحاب قبل أن يبدأ اللعب فلا يحقق سوى الخسارة ، أقول ذلك وأومن به وانظر إلى الحياة دائما بقلب يخفق بالأمل .. فلماذا تفرض على صداقتك وترورنى بلا دعوة ؟ . فسحب يده من يدي وقال لى مؤكدا للمرة الأخيرة : لقد دعوتنى فلبيت الدعوة .. وليست هكذا

أصول الضيافة ! ثم تميا للانصراف غاضبا فأثار ضيفي أنه ما زال مصرا على أنى دعوته وعدت مسرعا إلى الشقة لأبحث عن « قلة » أكسرها وراءه فلم أجد فأخرجت زجاجة مياه مثلجة وعدت سريعا إلى السلم لأرمى بها عليه ورفعتها فسرت برودتها فى يدي وذكّرتنى بعصتي وقلت لنفسي فجأة « خسارة فيه » ثم شربت حتى ارتويت وعدت مبتهجا إلى شقتى !

## أناشيد الأمل

كعادته خلال الفترة الأخيرة دخل مكتبي مهموما وجلس صامتا مهموما يشرب القهوة ويفكر . احترمت صمته فلم أشأ أن أقطع تأملاته الحزينة لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أتعجب للمفارقة الغريبة بين صورته الضاحكة اللاهية التي يعرفها الناس عنه وبين طبيعته التي تميل للحزن والانطواء والتي أعرفها عنه . إنه نجم ضاحك موهوب يشيع البهجة والسرور بمجرد ظهوره على المسرح أو في الشاشة ويتوقع الناس منه دائما أن يسعدهم ويخفف آلامهم لكنني أراه منذ عرفته من سنوات طويلة مهموما دائما بمشاكله . وتكلم أخيرا فقال لي : إنني عائد الآن من عيادة الطبيب فلان .. لقد أكدت التحاليل والفحوص شكوكه حول مرضي ، وواجهني بالأمر فخرجت من عيادته والدنيا مظلمة أمامي وفكرت أن أمر بك . وصدمني النبأ لكنني قلت له مهوونا عليه الأمر : لا يخلو إنسان من مرض . ومرضك في النهاية مأمول الشفاء وعلاجك منه يتوقف إلى حد كبير على التزامك بتعليمات الطبيب وعلى قوة إرادتك ، ثم هو في النهاية إرادة الله التي لا تملك ولا يملك لها أحد دفعا .

فسكت قليلا ثم قال : إني لست حزينا لذلك فالصحة والعمر بيد الله وحده لكنني أتساءل فقط لماذا تحاصرني الهموم الآن .. والآن فقط بعد أن تصورت أن رحلة الشقاء قد انتهت وأنتى سوف أجني ثمرة كفاحي ومعاناتي خلال السنوات

الماضية . لقد شقيت كثيرا وتعبت كثيرا وواجهت الحياة وحدي بلا سند ولا معين منذ حصلت على الثانوية العامة ، وكنت أسير أحيانا على قدمي من السيدة زينب إلى معهد الفنون المسرحية بالهرم لأنني لا أجد ثمن تذكرة الأتوبيس ، وكثيرا ما عجزت عن شراء كتاب من كتب الدراسة بالمعهد فاقترضته من زميل لي ثم نسخته بيدي كاملا لأذاكر منه ، وبين هذا وذاك كنت أتردد على المسارح أبحث عن دور صغير لقاء قروش . وعملت في الظل سنوات دون أن يحس بي أحد حتى تخرجت .. وبدأت أشق طريق .. وتحملت الآلام الكثيرة .. والاضطهاد من بعض زملاء الفن لكي أجد ثغرة وسطهم أطل منها على الجمهور ثم بدأت أعرف النجاح .. وبدأ الناس يعرفونني والمخرجون يتسبمون في وجهي بعد أن كانوا يحدثونني من أطراف أنوفهم ، وتضاعف أجرى في المسرح والسينما والتليفزيون عشرات المرات ، وعرفت النقود الوفيرة لأول مرة في حياتي فانتقلت من الغرفة التي أسكن فيها إلى شقة صغيرة ثم إلى شقة فاخرة في حي راق واشترت سيارة ثم أخرى أغلى وأكبر وبدأ الكبار يتوددون إلي ويسعون إلى صداقتي ، وبدأت أحس أن أيام الشقاء قد انتهت وأن أيام السعادة قد جاءت فماذا حدث ؟ .

قلت له : أعرف ما حدث .. وهو من طبيعة الحياة التي لا تخلو من مشاكل . فقال مواصلا حديثه : قد يكون كذلك .. لكنه لم يحدث كثيرا بهذه الطريقة إلا معي .. فقد تعرضت لحادث تصادم كاد يقضي على حياتي وورقت أسابيع أعاني آلاما لا تحتمل ثم فقدت خلال رحلة الكفاح حيي الوحيد لأن فتاتي ضاقت بانشغالي بمعركة الحياة ولم تستطع الصبر على قليلا حين بدأت أعرف النجاح لكي أؤمن مستقبلي ومستقبلها وضاقت بالانتظار وفضلت الاستقرار العائلي على انتظاري أكثر من ذلك ثم فقدت صوتي فجأة وعشت أسابيع أخرى مهددا بخطر فقده إلى الأبد وهو رأس مالي الوحيد . وصحوت من نومي مرارا مفزوعا أتخيل



نفسى وقد فقدته نهائيا ففقدت سلاحى فى الحياة ، وأخيرا شفيت وهدأت مخاوفى  
فبدأت أحس بانني غريب فى صحتى .. وأغمى على أكثر من مرة فى الاستديو ،  
وفوق خشبة المسرح وذهبت إلى الطبيب فشك فى حالتى وطلب منى فحوصا  
عديدة وبدأت رحلة الآلام والخوف والرجاء وذهبت إليه اليوم بآخر هذه التحاليل  
فألقى على هذه المفاجأة .. إننى راض بقضاء الله وقدره لكننى أتساءل فقط لماذا  
الآن فقط ، بعد أن بدأت استريح واستعد لجنى ثمار كفاحى .. هل هى ضريبة  
النجاح كما يقولون ؟ ووجدت نفسى أقول له لا محل للسؤال يا صديق  
ولا مكان له ، فليس من حقنا أن نسأل عن الأسباب فالله هو الذى يسأل الناس  
عما يفعلون ولا يسأل هو جل شأنه عما فعل . قدر الله وكما شاء فعل .. وعلينا دائما أن  
نتقبل ما تأتى إلينا به المقادير وأن نتجاوز السؤال « لماذا » إلى السؤال ماذا نستطيع  
أن نفعل لكى نتغلب على آلامنا ومشاكلنا .. ولعلك يا صديق أسعد حالا من  
غيرك ، فالدنيا فيما يبدو كالمصلحة الحكومية التى تشترط لكى تلبى لك طلبك أن  
تقدم إليها ورقة تمغة كضريبة مستحقة عما تعطيه لك ، وأنت قد طلبت منها الكثير  
وأعطتك الكثير فأعطتك النجاح والثراء والشهرة وحب الآخرين ، ومن حقنا أن  
نسعد بما حققنا فى حياتنا متناح وليس من حقنا أن نعترض على التمغة  
الحكومية التى تستأديها منا الدنيا أحيانا مقابل ما حققنا لأنفسنا .. لكننا نرجو  
دائما أن تكون ضرائبنا هيئة محتملة وبعض التعساء يدفعون أحيانا بغير أن يأخذوا  
شيئا فلنرض إذن بما أخذنا وبما دفعنا ولنلتمس دائما السلوى والعزاء فى الأشياء  
الأخرى التى أجزلت لنا الدنيا فيها العطاء .. لأننا لن نحصل دائما على كل شىء ..  
وإنما سبق هناك دائما ما نحلم به وما نلهث وراءه وما نحققه وما نخسره .. فاحمل  
أقدارك فوق كتفك يا صديق وامض فى الحياة صابرا .. آملا أبدا فى رحمة الله  
التي تسع كل شىء .

فلست وحدك فى همومك ولا الدنيا تستهدفك أنت بالذات بهذه الضريبة ..  
وإنما هكذا هى الحياة لوحة لا تتم وأنشودة لا تكتمل .. وسيمفونية مبهجة  
أحيانا .. وشجية أحيانا .. وناقصة غالبا .. لكن الأمل فى الله وفى رحمته  
لا ينقطع أبدا .

الانجليز تصوير دقيق لما جاء في كتب علم النفس الجسمى أو علم النفسجسمى .. الذى يعرفه المتخصصون عن تأثير القلق على جسم الإنسان . فالقلق يسبب توتر الأعصاب وحدة المزاج ، وتوتر الأعصاب يحول العصارات الهاضمة فى المعدة إلى عصارات سامة تنهش جدرانها فتصيبها بالقرحة .. وهكذا يأكل القلق جدار معدة الإنسان أولا .. ثم قد يتوحش بعد ذلك فيلتهم أو يتلف العديد من أعضائه الأخرى ، فبعض أنواع مرض السكر وبعض أمراض القلب وبعض أمراض المخ تنمى كلها إلى جدٍ واحد هو قلق الإنسان واكتسابه وخوفه من المجهول .

وكل إنسان يخاف غالبا من شيء ما .. من المرض أو الفشل أو فقد الأحباء أو العوز أو فقد المكانة أو انعدام الدور أو الموت ، ولا بأس بأن نخاف من أى شيء .. لكن المهم هو كيف نحفظ بالخوف الإنسانى فى حدوده الطبيعية .. وألا نسمح له بأن يسلمنا إلى غول الاكتئاب .

لقد قال ولیم جیمس مؤسس علم النفس التطبيقي ذات مرة : إن الله يغفر لنا أخطاءنا .. لكن جهازنا العصبى لا يغفرها لنا أبداً ، وهذا صحيح إلى حد كبير ! . وأكبر أخطائنا فى حق أنفسنا هو القلق والاستسلام للاكتئاب والشعور بالاحباط وكثيرا ما نتعرض لهذه الأعراض إذا بدا لنا فجأة كأن الطريق قد أصبح مسدودا أمامنا وأن المشكلة التى نواجهها جبل شاهق لن نستطيع أن نتسلقه لكي نهبط إلى طريق الأمان من الناحية الأخرى .. مع أن أكثر من شقوا طريقهم بنجاح فى الحياة قد اصطدموا بمثل هذه العقبات أو بأعتى منها .. فتخطاها البعض .. وتحول البعض الآخر عنها إلى طريق آخر فى الحياة لم يلبث أن حقق فيه أكثر مما كان يحلم به لو سار فى طريقه الأول .. أما من جلسوا على الأرض يستشعرون العجز .. ويشكون سوء الحظ .. وينحسرون على ما كانوا سيحققونه لو

## صديقى لا تأكل نفسك

منذ سنوات كنت ألتقى دورة دراسية عن الصحافة فى إنجلترا ، وذات صباح كنت أجلس إلى مكتبي فى قاعة المحاضرات .. أستمع إلى المحاضر وأدون ملاحظاتي .. فطلب أن يكتب كل منا مقالا قصيرا عن رحلة قام بها الدارسون فى اليوم السابق .. ونزل عن منصته يتجول بين المكاتب - ويقرأ السطور الأولى من كل مقال .. حتى جاء إلى مكتبي فمدت له يدي بما كتبت كما فعل زملاء .. ففوجئت به ينحني يدي جانبا وينحني على ليقول لى : سأقرأ ما كتبت فيما بعد .. لكنى جئت لأسألك : ماذا يأكلك ؟ .

ولللحظة لم أفهم السؤال .. لكنى سرعان ما خمنت أنه يسألنى عما يشغل بالى وتأكد ظنى حين واصل حديثه قائلا : إني ألاحظ أنك مكتئب منذ يومين فاذا بك .. هل تفتقد بلدك وأسرتك ؟ .

وأسرعت أشكره لسؤاله وأطمئنته .. لكنى وجدت نفسى أتأمل هذا التعبير الغريب .. وأتعجب له .

ماذا يأكلك ؟ يا له تعبير عجيب ! لقد سمعته بعد ذلك مرات عديدة .. واستخدمته أحيانا خلال إقامتى هناك .. كتعبير مجازى عما يفعله القلق والاكتئاب والمهموم بالإنسان ، لكنى لم أفهم معناه الحقيقى إلا فيما بعد حين قرأت عما يفعله القلق بالإنسان .. فإذا به « يأكله » فعلا لا مجازا ، وإذا بهذا التعبير الشائع عند

لم تصادفهم هذه العقبة . فلقد خسروا طموحهم .. وأعصابهم وصحتهم وقدرتهم على الاستمتاع بالحياة .

إن كتاب التراجم الشهيرة يفتشون في حياة المشاهير دائما على نقطة التحول التي كانت بداية انطلاقهم إلى المجد ، فيكتشفون في أحيان كثيرة أنها كانت عقبة كثودا أو فشلا ذريعا .. أو اخفاقا في تحقيق هدف ، حوّل مجرى حياتهم إلى الطريق الذي لمعت فيه عبقرياتهم .

فبعض النقاد مثلا يعتقدون أنه لو لم يصب طه حسين بالعمى في صباه .. لما كان طه حسين الذي لا تكاد تخلو جامعة أجنبية في العالم الآن من رسالة دكتوراه عنه . وأنه لو توافرت لعباس محمود العقاد الظروف المادية اللازمة لمواصلة تعليمه في المدارس بعد الابتدائية لكان أقصى ما وصل إليه من مجد في حياته هو وظيفة مدير في مصلحة حكومية ويعتقد بعض نقاد الغرب أنه لو لم يُصب بيتوفن بالصمم لما ألف سيمفونياته الخالدة وأنه لو لم يتجرع ديستوفيسكي وتولوستوى وشارلز ديكنز، التعاسة في حياتهم الخاصة لما كتبوا روائعهم الخالدة ، والأمثلة كثيرة على العقبات التي اعترضت طريق المشاهير فحولوها إلى بداية حياة جديدة ونجاح أكبر .

فلماذا نقف مكتوفي الأيدي أمام أول مشكلة تصادفنا .. أو أول عقبة تعترض طريقنا .. فنحزن على ما فاتنا ونحسر على ما ضاع منا كأننا ننتقم من أنفسنا بالحزن والاكتئاب .

إن الحياة لا تتوقف أبدا .. ومياه النهر لا تكف عن الجريان .  
وأحد فلاسفة الإغريق كان يقول إن كل شيء في الحياة يتغير إلا قانون التغير نفسه ! فلماذا نتصور أن الحياة سوف تخالف هذا القانون فيما يخصنا نحن فقط فتبقى الأبواب دائما مسدودة .. والأحلام بعيدة .

إن الحياة جديرة بأن نحياها .. والأحلام جديرة بأن نكافح من أجلها والثقة

في الله وفي النفس تشد أزرنا .. وتشجذ إرادتنا .. لكي نتطلع إلى نصيبنا العادل من السعادة والنجاح .

فإذا كان الأمر كذلك فلماذا « تأكل » نفسك يا صديقي ؟!

## أشواك الآخرين

أنت حائر دائما .. هل تقترب من الآخرين أم تبتعد عنهم ؟ ! هل تثق بهم أم تصدق ظنونك فيهم .. ؟ هل تبوح لهم بأسرارك أم تكتمها عنهم .. هل تعيش في قلب الدائرة معهم .. أم تنزل على حافتها كما يعيش الفجر في أطراف المدن والقرى .. منعزلين عنها ومنفردين بأنفسهم ؟ .

وأنا معك في كل هذه التساؤلات أبحث عن إجابات مريحة لها وحائر معها مثلك .

فمنذ قديم الزمان والإنسان حائر في علاقاته بالآخرين يحتاج إليهم ويشكو منهم يشقى إذا ابتعد عنهم ويبكى إذا اقترب منهم لا يستطيع أن يعيش وحيدا كحيوان اللؤلؤ في قلب محارته .. ولا يستطيع أن يلتصق بالآخرين في كل لحظة من عمره وإن فعل كانت شكواه منهم كشكواه من الوحدة سواء بسواء .. فلا هو ارتاح في القرب منهم ولا هو وجد راحته في البعد عنهم .. لأن حالنا مع الآخرين كحال المتنبي مع الملوك الذين اقترب منهم طلبا للسلطان فقال عنهم :

صحبت ملوك الأرض مغتبطا بهم وفارقتهم ملآن من ضيق صدرا !

وهذا هو حالنا دائما نحن البشر مع الجميع ! وذات يوم سألتني شاب هذه الأسئلة الحائرة .. فتذكرت فجأة قصة قديمة رواها أحد الأدباء عن مجموعة من « القنافذ » اشتد بها البرد ذات ليلة من ليالي الشتاء فاقتربت من بعضها وتلاصقت

طلبا للدفء والأمان ، فأذنتها أشواكها فأسرعت تبتعد عن بعضها ففقدت الدفء والحرارة والأمان فعادت للاقتراب من جديد بشكل يحقق لها الدفء والأمان ويحميها في نفس الوقت من أشواك الآخرين ، ويحمي الآخرين من أشواكها .. فاقتربت ولم تقترب .. وابتعدت ولم تبتعد .. وهكذا حلت مشكلتها ، وهكذا أيضا ينبغي أن يفعل الإنسان ! .

فالاقتراب الشديد من الجميع قد يغرس أشواكهم فينا ويغرس أشواكنا فيهم .. والبعد عنهم أيضا يفقدنا الأمان والدفء ويجعل الحياة قاسية ومريرة لهذا فنحن في حاجة دائما إلى أن نتلامس مع الآخرين .. ولكن بغير التصاق شديد يفتح أبواب المتاعب . ويحجب الرؤية ويشوش السمع . لأن القرب الشديد يضيق مدى الرؤية في حين أن الاقتراب عن بعد أو الابتعاد عن قرب يجعل الرؤية أوضح والسمع أصفى .. فأنت إذا ألصقت شفثيك بالميكروفون وتحدثت فيه خرج صوتك مشوشا غير مفهوم .. وإذا أبعدته قليلا عن فمك خرج صوتك واضحا .. أما إذا أبعدته كثيرا .. جاء صوتك كالفحيح لا يميزه أحد ، فالإنسان في حاجة إلى رفقاء ييهم شجونه ويهتم بأمرهم ويهتمون بأمره ، لكنه يحتاج أيضا إلى أن تكون له ذاته الخاصة التي لا يقترب منها إلا الأصفياء وحدهم والإنسان يحتاج أيضا إلى أن يحسن الظن بالآخرين لكي تستقيم الحياة لكنه يحتاج أيضا إلى أن يكون حريصا بعض الشيء في علاقاته بهم ، فلا يمنح ثقته الكاملة إلا لمن عرفه جيدا وامتحن إخلاصه وصداقته وقيمه الأخلاقية ، لأن الاسراف في المشك خطأ يكشف عن سوء طوية الإنسان وفقا لقول الشاعر : « إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه » ، كما أن الإسراف أيضا في الثقة بالجميع وعن غير خبرة بهم يورد الإنسان موارد التهلكة ودليل على الغفلة وفقا للحكمة العربية القديمة « الشك من حسن الفطن » .. ومن هنا جاءت فكرة « الوسط الذهبي » عند فلاسفة

اليونان أى فكرة الاعتدال فى كل شىء .. فى القرب من الناس وفى الابتعاد عنهم ، فى الثقة فيهم وفى سوء الظن بهم وأيضاً فى كل أمور الحياة ، وهى نفس الفكرة التى تعبر عنها الحكمة المعروفة « خير الأمور الوسط » ، فالعقلاء من البشر هم الذين يحيون الحياة باعتدال فى كل شىء .. وشذاذاها هم من يقفون دائماً على حافة الدائرة من كل أمر ومن كل شأن .. ومن كل قضية .

وأنت قد تشكو مثلاً ممن تأتمنه على أسرارك .. فيبوح لسانه بها ولو بعد حين لكنك تعنى نفسك من اللوم لأنك كنت أول من أفشى سرك هذا حين بحث به لمن ائتمنته عليه ! والسرا إذا عرفه اثنان لم يعد سرا كما يقولون ، ولا لوم على الآخرين إذا ضاقت صدورهم به فقد ضاق صدرك أنت أولاً به لهذا فليس من حقلك أن تغضب ممن أفشى سرك وأن تعتبرها خيانة عظيمة .. وأن تفقد صديقاً لهذا السبب وحده .. وأن تبتعد عن الآخرين بسبب ذلك .. فالأمر قد لا يكون خيانة وإنما مجرد عجز بشرى عن حفظ الأسرار .. لأنه ليس كل الناس قادرين على الكتمان ، والدليل هو أنت شخصياً الذى يسألك الشاعر ومعه الحق :

تبوح بسرّك ضيقاً به .. وتبغى لسرك من يكتم ؟  
وأنت ترى أن من حقلك أن تنتقد الآخرين وأن تذكر معاييبهم لكنك تتألم كثيراً إذا مارسوا معك نفس الهواية فأذوك بالسنتهم وذكروا معاييبك ، .. وأنت قد لا تستطيع دائماً أن تكف ألسنة الآخرين عنك لكنك تستطيع على الأقل أن تتجنب الكثير منها إذا التزمت فى حياتك الشخصية بالتعفف عن ذكر عيوب الآخرين وعوراتهم وإذا صنت عينك عن عيوب الآخرين كما يطالبك الإمام الشافعى وقلت معه دائماً : « يا عين للناس أعين » ! أى لهم أعين ترى يا عين عيوبى فلا ترى عيوبهم لكيلا يروا عيوبى .. وهذه وتلك بعض مشاكلنا مع الآخرين وبعض مشاكل الآخرين معنا .. ومع كل ذلك فالحياة جديرة دائماً بأن

نحياها .. ونحن الذين نستطيع أن نجعل منها رحلة هادئة مأمونة من الخوف والألم والعذاب .

وكل رحلة تحتاج إلى رفاق سفر نستعين بهم على وحشة الطريق ونلتمس لديهم الدفء والأنس والصحبة .. وعلينا أن نفعل ذلك دائماً ولكن بشرط أن نتعلم الحكمة من القنابد فى اقترابها من الآخرين .

## ولكنها تدور

في كتابه «رسائل إلى ابنتي أنديرا» .. روى الزعيم الهندي نهرو ، نقلا عن حكيم صيني زار الهند منذ ألف وثلاثمائة سنة ، أنه شاهد فيها رجلا يطوف بالقرى مرتديا حزاما من النحاس فوق بطنه وواضعا فوق رأسه مشعلا مضيئا ، فإذا سئل عن سبب تجوله بهذه الهيئة الغريبة قال : إن عقلي عظيم إلى درجة أخشى معها أن تنفجر بطني من المعرفة إذا لم أرتد هذا الحزام ، أما المشعل فأني أضعه فوق رأسي لأبدد به ظلام الجهل !.

ومنذ اكتشفت هذه الشخصية العجيبة وصورتها تقفز إلى خاطري في مواقف ومناسبات عديدة في حياتي ، فكثيرا ما ألتقي بأشخاص يعتقدون أن بطونهم سوف تنفجر من فرط المعرفة .. أو من عظمة شأنهم التي لا يعترف بها أحد لأنهم مغبونون وغير مقدرين في أوساطهم الجاهلة !.

وكثيرا ما غابت نفسي لكي أمنعها من الضحك إذا قفزت هذه الصورة فجأة إلى خيالي وأنا مشتبك في مناقشة حامية مع واحد من هؤلاء ثم كثيرا أيضا ما ذكرتني هذه الصورة بنقائضها من المثقفين الحقيقيين والفلاسفة والعلماء الذين عرفوا الكثير وظلوا إلى آخر أيام حياتهم ظمأى إلى المعرفة يتساءلون عن معاني الأشياء .. ويشككون في صحة ما عرفوا ويطلبون اليقين بلا جدوى .

فأتذكر مثلا سقراط العظيم الذي يقول : أعرف شيئا واحدا هو أنني لا أعرف شيئا !.

أو أتذكر الفيلسوف الشاك أرسليوس الذي كان يقول : لست أدري ولست أدري أنني لا أدري !.

أو أتذكر الإمام أبا حنيفة النعمان الذي سئل مرة : هذا الذي تفق به أهو الحق الذي لا شك فيه فقال متحيرا ، والله لا أدري .. لعله الباطل الذي لا شك فيه !.

أو أتذكر الإمام الشافعي الذي سئل مرة عن مسألة في الفقه فسكت فقبل له ألا تجيب رحمتك الله ؟ فقال والله لا أجيب حتى أعرف هل الفضل في سكوني أم في جوابي !.

والحق أنني لا أكره شيئا قدر كراهيتي لأمثال هذا الرجل الهندي في كل مكان وزمان . فالمغرورون دائما هم أعداء أي تقدم وأي جديد تأتي به البشرية ، لسبب بسيط هو أنهم يعتقدون أن ما يعرفونه هم وحدهم هو اليقين وأن ما يأتي به الآخرون هو دائما الباطل ، ويرفضون دائما أن يخضعوا هذا الجديد للامتحان العقلي فإذا ثبتت صحته قبلوا به وإذا ثبت بطلانه رفضوه . والغرور دائما يا صديقي قرين التحجر ورفض الجديد . وأصحاب العقول المتفتحة العطشى دائما للمعرفة هم الذين يعرضون الأفكار الجديدة التي يسمعونها على عقولهم .. ويقبلونها .. ويتبنون فيها جوانب الصحة وجوانب الخطأ ثم يقبلون منها ما تقبله عقولهم ويرفضون ما ترفضه . أما الرفض مع سبق الإصرار والترصد .. وقبل المناقشة والتفكير فهو دائما طبيعة الحمقى والمغرورين الذين عطلوا تقدم البشرية على مر العصور !.

فأمثال هذا الرجل الهندي هم الذين كذبوا جميع الأنبياء بلا استثناء حين

جاءوهم بالهداية وهم الذين كذبوا العلماء والمكتشفين ووضعوا في طريقهم العراقيل وهم على سبيل المثال الذين كذبوا العالم الإيطالي جاليليو حين قال إن الشمس هي مركز الكون وأن الأرض والكواكب الأخرى هي التي تدور حولها وليس العكس كما كانوا يعتقدون ، وبدلاً من أن يخضعوا نظرياتهم للبحث والتجربة حاكموه وأدانوه وقضوا عليه بالأبداً يغادر بيته وأن يقضى فيه ما بقي من حياته لا يزور ولا يزار بل وبأن يعلن على الناس أن ما جاء به ليس صحيحاً وأن الأرض لا تدور حول الشمس فامتلأ لما أمر به لكن المؤرخين قالوا إنه حين سمع الحكم أحنى رأسه ونظر إلى الأرض ثم قال هامساً وبإصرار ... ولكنها تدور !

وأمثال هؤلاء أيضاً هم الذين كذبوا الرحالة الإيطالي ماركو بولو حين عاد من رحلته إلى الصين وروى للناس عن هذه البلاد العجيبة التي عاش فيها ٢٦ سنة ، فلم يصدقه أحد لأنهم كانوا يعتقدون بيقين أنه لا حياة وراء بحار الجنوب ، فألف كتاباً عن رحلته استغرق تأليفه سنة كاملة فلم يقرأه أحد ولم يصدقوا حرفاً مما جاء فيه ، وحين أدركته الوفاة طلب منه رجل الدين أن يتخذ روحه من العذاب في الدار الآخرة ، بأن يتبرأ من أكاذيب هذا الكتاب ، فأجابه هامساً : لكني لم أذكر فيه سوى نصف الحقيقة يا سيدي ! . وهكذا في كل العصور كان هناك دائماً من يعتقدون أن ما يعرفونه هم وحدهم هو اليقين الذي لا شك فيه وأن ما يعرفه غيرهم هو الباطل الذي لا شك فيه ، والذي لا يستحق حتى سماعه أو مناقشته ! .

ونحن مطالبون دائماً يا صديقي بأن نسمع أولاً لكل رأى يعرض علينا وأن نناقشه ونمتحن أدلته فإذا ثبت لنا صحته أو معقوليته قبلنا به وإذا ثبت لنا العكس رفضناه .

أما أن نرفض كل شيء قبل أن نعرفه ونناقشه اعتقاداً منا بأنه ليس لدى الآخرين ما يمكن أن يضيف إلى معارفنا الجديد أو أن لدينا نحن فقط اليقين الأكيد فهذا هو الطريق الذي سار فيه كل المتحجرين من أعداء الفكر الحر في كل العصور فإذا وجدت نفسك ذات مرة ترفض السماع للآخرين وتتشبث برأى لم تمتحن صحته من قبل وتدافع عنه بقوة العاطفة والانتفاع وحدها لا بقوة العقل .. فأنزل يدك قليلاً إلى حزامك وتحسس بأصابعك لترى أمن جلد هو أم نحاس فقد يذكر ذلك فجأة بتلك الهيئة المضحكة التي يبدو فيها من يعتقدون خطأ أنهم وحدهم الذين يعرفون دائماً ما لا يعرفه الآخرون ! .

## ففي المرأة

سأعنه الله أوسكار وابلد !.

فمنذ أن قرأت له روايته الشهيرة « صورة دوريان جرای » منذ أكثر من عشرين سنة .. فتح أبواب الجحيم أمامي ، وعلمني هواية التفرس في وجوه الآخرين لاستجلاء حقيقتها ، . وأفسد على بعض معايير فأصبحت أرى الأسود أبيض والأبيض أسود والجميل قبيحا ، والقبيح جميلا !.

ففي هذه الرواية اللعينة روى أوسكار وابلد قصة لورد شاب ثرى وسيم برىء الملامح ، سعى يوما إلى فنان ، ليرسم له صورة فرسمه الفنان كما رآته عيناه : وجهها بريئا جميلا وملامح طفولية ، وعلق دوريان جرای اللوحة في قصره ، وعاش حياته ولم يكن بريئا كما يبدو في ملامح وجهه ، ولا نبيلًا كما يوحي مظهره ، وإنما كان وعدا أنانيا شريرا ، لا ترده قيود ، ولا تحكمه قيم فخدع فتاة أخلصت له وتخلّى عنها فانتحرت ، ومضى في الدنيا يجرى وراء أهوائه ولا يقيم وزنا لأخلاق ولا قيم ولا صداقة ، وكلما ارتكب جريمة جديدة أو آذى إنسانا آخر نظر إلى وجهه في المرأة فرأى نفسه فيها شابا بريئا وسيمًا كما كان ، وحين التقى به شقيق فتاته التي حطم حياتها منذ عشرين سنة ليستقم منه لشقيقته ويقتله أنقذه من الموت نفس هذا الوجه البريء ، فقد توسل له دوريان جرای - كاذبا - أن يدقق النظر في وجهه ليرى هل من الممكن أن

يكون هو نفسه من حطم حياة شقيقته منذ عشرين سنة ودقق الشقيق النظر فرأى وجه شاب برىء الملامح ، أصغر من أن يكون هو الوجد الذي يطارده فأخلى سبيله ، ومضى يبحث عن المجرم الحقيقي ! ونجا دوريان جرای من الموت ، لكنه لم ينج من عذاب الضمير ، فقد اكتشف منذ فترة أن جرائمه وشروعه لا تترك آثارها على صفحة وجهه ، لكنها للدهشة تنطبع تدريجيا على ملامح الصورة الزيتية المعلقة في الصالون ! فكلما ارتكب إثما جديدا فقد وجهه في الصورة بعض براءته ، وكلما آذى إنسانا أضيفت إلى ملامح وجهه تجاعيد ودوائر سوداء جديدة ، وعندما اقترب أكبر شروعه نظر إلى الصورة فوجد وجهه فيها قد اكتسب ملامح شيطانية كاملة تصور حقيقته التي يخفيها وجهه البريء ، فخشى أن تفضح الصورة أمره ، ونقلها من الصالون إلى البدروم وأخفاها عن الأنظار !.

والفكرة خيالية بالطبع ، لكنها صادقة إلى حد كبير ، فلقد أراد أوسكار وابلد أن يقول إن لكل إنسان صورتين : إحداهما حقيقية هي التي يعرفها عن نفسه ، وتعكس سريره بآثامها أو أفضالها ، وأخرى مزيفة هي التي يظهر بها أمام الآخرين .

ومنذ قرأت هذه الرواية ، وأنا أأمل الوجوه ، وأحاول دائما أن أبحث فيها عن الصورة الحقيقية لأصحابها ، وأحكم على الآخرين بأخلاقهم لا بأشكالهم ، وبأفعالهم الخيرة أو الشريرة لا بمظهرهم ولا ملامحهم ، فأرى القبح والجمال بمقاييس مختلفة تماما ، فأرى مثلا في شخص ناصع البياض أنه زنجي ، لأنه زنجي القلب لا يكف عن إيذاء الآخرين ، ويحقد على الجميع ويتمنى لو صبحا يوما من نومه فرأى الأرض قد خسفت بكل الناس ، حتى لا يبقى فوق ظهر الكرة غيره . وأرى في إنسان محروم من الوسامة أنه أجمل



من «نارسييس»<sup>(١)</sup> لأنه كريم الخلق جميل الروح مفعم القلب بحب الآخرين لا يؤذى أحداً ، ويسعى بكل ما يستطيع لإسعاد غيره وهكذا . ورغم أنى تعرفت على هذه الفكرة لأول مرة في رواية أوسكار وايلد ، فقد عثرت على شيء شبيه بها فيما قرأته من أوراق الصوفية فيما بعد فلقد قرأت لأحد كبارهم أنه كان يقول وهو من هو في صفاء روحه وطهارته :

إنى لأنظر في المرأة كل يوم مخافة أن يكون قد اسود وجهى !  
أى مخافة أن يكون قد حمل حقداً أو كراهية لأحد ، فتتطبع آثارهما على صفحة وجهه !.

فماذا يستطيع إذن أن يقول من يتنفسون الكراهية وبطربون لإيذاء الآخرين ، ويسعون بكل جهد للإضرار بغيرهم حتى ولو لم يسيئوا إليهم ؟ وماذا يستطيع أن يقول من لا يحفظون عهداً ولا يقيمون وزناً لدين ولا خلق ولا قيم في حياتهم .

وكم صورة كصورة دوريان جرى يحتاجون إليها لكى تنطبع عليها آثار الشر والكراهية والحق الذي يعيش في ظلام قلوبهم ؟ وبأى ملامح شيطانية كريمة سوف تظهر صورتهم الحقيقية بغض النظر عما تحمله وجوههم من ملامح وقسمات ؟.

لقد كان إمام الصوفية الغارق في بحار الحب ينظر في المرأة كل يوم ، فانظر أنت أيضاً يا صديقي فيها . وحاول أن تحتفظ بشبابك ووسامتك الحقيقية فيها ، وَجَمِّلْ وجهك بحب الآخرين ، والكف عن الأذى ، وبإسعاد غيرك

(١) فتى أغريقى روت الأساطير اليونانية إنه كان باهر الجمال ويمضى نهاره يتأمل جمال وجهه في صفحة الماء . وإليه تنسب الترجسية أو عشق الذات .

بقدر ما تستطيع ، فلكل منا مرآة سوف تنطبع عليها صورته الحقيقية ذات يوم فتفصح سريره الخفية ، ولكل منا يوم سوف يُعرض فيه على ملك الملوك . فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ويحيى بعضنا بوجوه شائبة كريمة ، ويحيى البعض الآخر بوجوه نبيلة كريمة ، ولا علاقة لهذه الوجوه الحقيقية بما حملنا طوال حياتنا من ملامح جسدية ، لأنها حصاد رحلتنا في الحياة من الخير والشر ، ومن الجمال والقبح .. فإلى اللقاء هناك !.

## من فضلك ساعرنى

قال لى صديقى والسأم يقتله : هل تعرف ما هو الجحيم ؟ .  
قلت له : لا ؟ .

قال : هو أن تعاشر من لا تحبهم .. وتصادق من لا تستريح إليهم وتعمل بين من لا يفهمونك .. وتشعر كل يوم بأنك عاجز عن تحقيق ما تريده لنفسك .. وما تؤمن به وتعتقد به ! .

قلت : وكيف يستطيع الإنسان أن يحتمل حياة من هذا النوع ؟ .

قال : العجيب أن كثيرين منا يعيشون حياة شبيهة بهذه الحياة فى مجملها أو فى بعض صورها .. ويحتملونها كأنه قدر مكتوب عليهم أو كأنهم ينفذون حكما قضائيا صادرا ضدهم من محكمة الحياة .. ولا يفكرون أبدا فى استئناف هذا الحكم وفى تغيير حياتهم والبحث عن حلول ملائمة لما يشكون منه .

قلت : وماذا تتوقع منهم أن يفعلوا ؟ .

قال : أن يكفوا عن الشكوى مما يضيّقون به .. وأن يستثمروا الطاقة التى يبددونها فى الأنين فى البحث عن حلول لما يعانون منه من مشكلات . إن الشباب فى الخارج لا يهدر عمره فى الشكوى والتبرم بالحياة .. وإنما يتحركون لتغيير الواقع الخاص الذى يضيّقون به .. فمن لا يجد سعادته فى حياته الخاصة يبحث عنها فى حياة جديدة .. ومن لا يجد نفسه بين أصدقائه يبحث عنها بين

أصدقاء آخرين أكثر فهما له ، ومن لا يجد نفسه فى عمله يبحث عنها فى عمل جديد فإن عجز عن إيجادها حاول أن يتواءم مع عمله وأن يحبه وأن يكتشف فيه جوانب جديدة يمكن أن تحقق طموحه وذاته ، بل إن من يجد الطريق أمامه مسدودا فى مكان ما من الأرض لا يهدر عمره فيه وإنما يغادره غير نادم إلى مكان آخر وحياة أخرى .. حتى أصبحت هذه العبارة الغريبة على أسماعنا « حياة جديدة » عبارة شائعة على ألسنة الشباب والكهول بل والشيوخ أيضا .. فمن لا ترضيه حياته يقول لنفسه وللآخرين دائما سأبدأ حياة جديدة ثم يتحرك بالفعل ليبدأ هذه الحياة وليس ذلك مقصورا أبدا على الشباب .. فحتى بعد سن المعاش يقول الإنسان لنفسه سأبدأ حياة جديدة أتمتع فيها بما لم تتح لى سنوات الكفاح والعمل اكتشافه والتمتع به .. وهكذا يعيش الإنسان حياته أكثر من مرة .. ويستمتع بكل مرحلة من مراحلها .

قلت : أما نحن ؟ .

قال : نحن مشدودون دائما إلى واقعنا الذى نشكو منه بحبال رفيعة من الصلب المتين .  
نشكو من حياتنا ولا نحاول أبدا أن نتواءم معها أو أن نغيرها إذا يشنا منها .

ونشكو من أصدقائنا ثم نذهب إليهم لنجتر معهم السأم والملل ويعيش كل منا فى وحدته الداخلية وهو بين أصدقائه ! ونشكو من عملنا ولا نحاول أبدا أن نتكيف معه أو نكتشف فيه ما يستهويننا ويطلق إبداعنا .. أو نغيره ونبحث عن مستقبلنا وأنفسنا فى مجالات جديدة .

إنها رحلة عذاب نكرر فيها كل يوم أسطورة سيزيف الذى غضبت عليه آلهة الاغريق فحكمت عليه أن يحمل فوق صدره صخرة كبيرة ويصعد بها إلى

قمة الجبل .. وكلما وصل إلى القمة ألقت الآلهة الصخرة إلى السفح ليحملها من جديد إلى القمة .. وطوال العمر !

إن كلا منا يحمل مثل هذه الصخرة فوق صدره .. ولا يفكر أبداً في إلقائها بعيداً عنه .. فتى يلقي كل منا بصخرته عن صدره .. ومتى يأتي هذا اليوم ؟

تفكرت في كلامه طويلاً .. وبحث عن إجابة تهدئ خواطره .. فوجدت نفسى أجيبه : سيأتى هذا اليوم بالتأكيد يا صديقى .. وعلينا ألا نفقد الأمل فيه أبداً .. وإلا استحالَت الحياة ، إن الإنسان هو أعظم أعجوبة في العالم كما قال ذلك منذ قرون الشاعر الاغريقى الأعمى سوفوكليس ، وإرادته هى التى تصنع الحياة .. وهو قادر دائماً على تحقيق المعجزات حين يريد وحين يتحرر من الجمود وحين يخرج من دائرة الشكوى والأنين إلى دائرة الحركة والعمل .

لقد انهزم الديناصور فى معركة التطور .. فانقرض واندثر فى حين انتصر الإنسان على الطبيعة فبقى وتواصل .. مع أن عضلات الإنسان ليست أقوى من عضلات الديناصور .. لكن عقله .. وروحه وإرادته هى الأقوى لهذا عاش الإنسان .. ومات الديناصور . وسوف يعيش الإنسان دائماً .. وسوف يتغلب على كل الصعاب التى تواجهه . إننى لست من أنصار مذهب الفيلسوف الألمانى شوبنهاور الذى كان يقول إن الإنسان أصلاً مخلوق معذب وأن الحياة ليست سوى تعاقب الألم والفراغ وتعاقب الرغبة والسأم ، وإنما أنا من المعجبين كثيراً بكلمة الفيلسوف الفرنسى رينوفيه الذى عاش حياة خصبة طويلة وملاً المجلدات بأفكاره وآرائه ثم قال وهو فى الثامنة والثمانين من عمره « سأترك الدنيا قبل أن أقول كلمتى النهائية .. لأن الإنسان يموت دائماً قبل أن يتم عمله .. وهذا أشد أحزان الحياة إثارة للشجن !

هذه هى « النظرة » التى أؤمن بها فى الحياة .. والتى أعجب بها . إن على كل إنسان أن يقول « كلمته » حتى اللحظة الأخيرة . وألا يفقد حماسه أبداً لتحقيق ما يريد لنفسه وما يؤمن به من آراء وأفكار وليس ضرورياً أن يحقق النجاح الذى يصبو إليه .. لكنه من الضرورى جداً أن يسعى .. وأن يقول لنفسه إذا عجز عن تحقيق آماله : لقد حاولت . إن الخطأ ليس أن نعيش حياة لا نرضاها لكن الخطأ هو ألا نحاول تغييرها إلى الأفضل دائماً .. فإذا قصرت الإمكانيات عن الأمانى .. فزنا على الأقل بشرف المحاولة الذى يدفعنا للرضا .. لأننا لم نقصر فى حق الحياة ولا فى حق أنفسنا .

إننى لا أشك أبداً يا صديقى فى أن هذا اليوم الذى تحلم به سوف يأتى .. وسوف يتحقق ..

لكن إلى أن يأتى .. من فضلك ساعدنى على حمل هذه الصخرة الثقيلة !

## أحلام السبّاب

لم أعد أذكر اسم هذا الفيلم ، لكنى لم أنس أبدا قصته ، ولا السؤال الذى جاء على لسان أحد أبطاله فى آخر مشاهدته .

أما الفيلم فلقد كان يحكى قصة شاب يرى فى نفسه موهبة التمثيل المسرحى ، وحقق نجاحا محدودا فى فرق الهواة ببلدته الصغيرة حيث يعمل موظفا بأحد المتاجر ، ويعيش حياة سعيدة مع زوجته الشابة التى تزوجها بعد حب عنيف فيقرر فى لحظة تحديد للمصير أن يترك البلدة الصغيرة وعمله المتواضع ، ويرحل إلى العاصمة ليبحث عن مستقبله فى عالم المسرح ، وفى المدينة الكبيرة يحاول الشاب أن يجد فرصته فيجد الطريق صعبا والآمال ليست سهلة المنال ، فيضطر تحت ضغط الحاجة إلى العمل مساعدا للجارسون فى أحد المطاعم ، ويدرس فنون المسرح فى أحد المعاهد الصغيرة ، ويعجز مرتبه الضئيل عن الوفاء بمتطلبات حياته ونفقات الدراسة ، فيعيش مع زوجته حياة جافة متقشفة ويمضيان شهورا طويلة بلا أية متعة سوى متعة الحلم بتحقيق الآمال ، وتحاصرهما المشاكل والديون ، وتعجز زوجته عن احتمال قسوة الحياة فتنهار ، وتطلب منه أن يعودا إلى البلدة الصغيرة ، ويرفض الشاب أن يتنازل عن أحلامه ويستحلفها باسم الحب والأحلام المشتركة ألا تراجع فى منتصف الطريق وتهجره ، ويأتى موعد ذهابه إلى المطعم فيغادرها

حزينا ، ويؤدى عمله مهموما ومشغولا بزوجته التى ضعفت مقاومتها أمام صعوبات الطريق ، فيستأذن مديره فى العودة للبيت مبكرا ليكون إلى جوار زوجته ، وفى الطريق إلى البيت يشتري بقروشه القليلة ثلاث وردات ليهدىها إليها لعلها تنعش رومانسيتهما القديمة لكنه يجد الغرفة المفروشة التى يقمان فيها خالية وعلى الفراش رسالة من زوجته تقول فيها إنها لم تعد تحتمل هذه الحياة الصعبة فعادت إلى بلدتها ، ويمسك الشاب بالرسالة ويحس بالقهر والعجز والهوان فينفجر باكيا لكنه لا يفكر فى اللحاق بزوجته ويكتب لها طالبا منها العودة ويشرها بقرب تحقيق آماله فى الحياة فتجيبه برسالة قصيرة طالبة منه الطلاق ، ويستجيب الشاب مضطرا إلى رغبتها ويطلقها ويتمسك بطموحه . وتعابته الآمال فيؤدى دورا صغيرا فى مسرحية ثم تتوقف الفرقة عن العمل فيعود إلى المطعم ... وتمضى خمس سنوات من العمر بين الفشل والنجاح بغير أن يضع أقدامه على بداية حقيقية للطريق .

و ذات مساء وقف يتحدث مع زميل له بالمطعم عن الاختبار الذى أداه صباح ذلك اليوم أمام مخرج مسرحى شهير حين لمح رجلا وسيدة يجلسان إلى مائدة فى الركن الذى يتولى الخدمة فيه ، فتنبأ للذهاب إليهما ثم توقف فجأة وأحس بالعرق الغزير يملأ وجهه . لقد كانت زوجته السابقة التى انهزم حبها له أمام صعوبة الحياة ولا بد أن الرجل هو زوجها الجديد ، ووجد نفسه يتأمل أنه رجل فى الخامسة والأربعين أصلع الرأس هادئ يوحى وقاره ومظهره بأنه رجل عملى واقعى لا يعرف الأحلام ، ولا يعذب زوجته بطموحه إلى حياة يحقق فيها ذاته ونفسه وأدرك زميله أزمته فعرض عليه أن يتولى خدمتها نيابة عنه ، ورحب بذلك ، لكنه غير رأيه فجأة فأمسك بذراع زميله قبل أن يتجه إليهما ، ثم وضع الفوطة على ذراعه وتقدم هو من المائدة بثبات وقال لهما :

مساء الخير يا سيدتي . مساء الخير يا سيدي .. ماذا تطلبان ؟

والتقت عيناه بعيني زوجته فاهترت قليلا ، ثم حينه مبتسمة وقدمته لزوجها وقدمت زوجها له ، وأحسن الزوج بخرج الموقف ، فانسحب إلى الحمام ليتيح لها فرصة الحديث لدقائق .. وسأله الزوجة السابقة عن أحواله ، فقال لها إنه ما زال يكافح لتحقيق آماله لكنه سعيد بما اختاره لنفسه ، وقالت له إنها أيضا سعيدة بحياتها الهادئة مع زوجها الجديد وتمنى كلا منهما السعادة للآخر ... وعاد الزوج وتناولوا العشاء وغادرا المطعم تاركين له بقشيشا كبيرا لم يجد حرجا في قبوله ، وبعد انصرافها وجد صدره يحيش بالانفعال فخلع جاكيت العمل واعتذر عن عدم مواصلته . وذهب إلى المسرح ليعرف نتيجة الاختبار الذي أجراه في الصباح ، ففوجئ بالخروج يبلغه باختياره لأداء دور هام في المسرحية الجديدة ، فيقرر التفرغ للمسرح نهائيا حتى ولو عانى الجوع والتشرد . وتتعاقد معه الفرقة على العمل فيها لمدة عام بمرتب أقل مما كان يتقاضاه من المطعم ، لكنه يرحب به ويتحمس لأداء دوره .

وينتهي العقد فتجدد الفرقة التعاقد معه بمرتب أكبر قليلا لمدة عامين ينهي خلالها دراسته بالمعهد . ويشتهر بين زملائه بالالتزام والجدية .

ثم تجيء إليه فرصة العمر حين يؤدي دور البطولة لأول مرة بعد سنوات طويلة من الكفاح والمعاناة ، فيحقق نجاحا كبيرا وتنشر الصحف صورته ويكتب عنه ناقد : إنه مثل دور الزوج الذي هجرته زوجته لعجزه عن توفير الحياة الكريمة لها بمرارة مؤلمة اجتذبت الدموع من العيون ، ويعرف أخيرا طعم النجاح ، وتضمه إليها كبرى فرق العاصمة بعقد دائم ومرتب كبير ويتنقل من الغرفة الصغيرة المفروشة التي شهدت سعادته وآلامه إلى شقة واسعة فاخرة . ويكتشف فجأة أنه قد بلغ الأربعين من عمره . حين يرى الشعيرات

البيضاء تغطي جوانب شعره ، وأنه أمضى ١٤ عاما طويلة من العناء والكفاح منذ هجرته زوجته حتى وقف تحت أضواء المسرح .

ويسر بخواطره لزميل له بالمسرح عاش تجربة كفاح مماثلة ، وهما يقفان خلف الكواليس يستعدان لدخول خشبة المسرح بعد قليل فيسأله زميله فجأة : ها قد حققنا أحلامنا وأصبحنا نجمين يشار إليهما بالبنان ، فهل يستحق ما حققناه كل ما تكبدناه من أجله ؟

وفاجأه السؤال ، فاهتر من أعماقه ووجد نفسه يسترجع شريط حياته واستغرق في تأملاته حتى أفاق على يد زميله تهزه ليستعد لدخول خشبة المسرح فيستفرض ثم يقول له بإصرار كأنه يتحدى نفسه : نعم يستحق كل ما قدمناه من أجله ، نعم يستحق بكل تأكيد ثم خطا إلى خشبة المسرح بخطوات نشيطة ، فقبيل بعاصفة من التصفيق دمعت لها عيناه ، وأخرجته من تأملاته الحزينة فأنحنى يرد تحية الجمهور ، ثم نهض والتفت إلى زميله الواقف في الكواليس ينتظر لحظة دخوله بعد دقائق ، كأنه يقول له بغير كلام : نعم يا صديقي .. نعم يستحق كل ذلك وأكثر ... وإلا لكانت معاناتنا بلا معنى وعذابنا بلا طائل وكفاحنا بلا قيمة .

وتمر السنوات وتسقط من ذاكرتي أشياء كثيرة ، لكن قصة هذا الفيلم وسؤاله الأخير وجوابه المعبر لا تسقط من الذاكرة أبدا ، وكثيرا ما أتذكرها حين يثنى صديق همومه ، أو حين يسألني شاب النصيحة ، وهو في بداية الطريق ، فأجد نفسي أكاد أروي له قصة هذا الفيلم لأطالبه بعدها بأن يتمسك بأهدافه ، وأن يوطن نفسه على احتمال عثرات الطريق ، وأن يؤمن دائما بأن تحقيق الآمال يحتاج إلى الصبر ، وإلى أن تؤمن في أعماقنا بأن ما نسعى إليه يستحق ما نتكبد من أجله ، وبأن ما حققناه من خطوات ولو

محدودة على الطريق يستحق أيضا ما بذلناه للوصول إليه ، وما سوف نقدمه في المستقبل بإذن الله من أجل استكمال تحقيق الأحلام والآمال بشرط أن نظل دائما قادرين على الحلم وعلى التمسك به ..

## احترس من الحوت

أوقف أى إنسان عابر في الطريق واسأله عن مشاكله .. وسوف ينتحى بك جانبا ثم يسمعك قائمة من المتاعب .  
فإذا قلت له لكنك تحيا رغم ذلك .. سيقول لك نعم أحيأ ولكن ! .  
وهكذا الإنسان في كل مكان من العالم ! .  
فليس هناك إنسان بلا مشاكل وليست هناك حياة خالية من المتاعب والآلام .. لكن السؤال الهام هو كيف نواجه همومنا ومشاكلنا .. أو كيف نتعايش معها ؟ .

لقد كان من تقاليد البحارة في الزمن القديم إذا صادفوا حوتا ضخما في البحر أن يلقوا إليه بقارب فارغ ليشتغلوه به عن مهاجمة السفينة حتى لا تغرق ثم يحاولون صيد الحوت وهو منشغل بمناطحة القارب الفارغ .  
وهذا بالضبط ما ينصحك به علماء النفس في العصر الحديث أن تلقى لحوت همومك قاربا فارغا يشغلها عنك ويشغلك عنها إلى أن تنجح في اصطيادها والقضاء على أسبابها .

وأقصر طريق إلى ذلك في رأى عالم النفس « بول كوستا » هو الثقة بالنفس ونسيان التجارب الأليمة ، والمشاركة في النشاطات الاجتماعية . فهذه

المشاركة بالذات هي ما يشغلك عن المهموم وما يشغلها عنك .

ومن دعاء فيلسوف اغريقى قديم أنه كان يقول : « يارب امنحني القدرة على تحمل ما لا طاقة لى على تغييره . والشجاعة لتغيير ما ينبغي تغييره . والحكمة للتفريق بينهما . » .

فالوقوف أمام التجارب الأليمة واجترارها لا عائد له إلا اهدار العمر فيما لا يفيد الإنسان .. ولا يغير من الأمر شيئا .

والاكتفاء بالشكوى لا يخل مشكلة .. ولا يساعد الإنسان على التقدم خطوة واحدة للإمام .

وفى كل الأحوال فعلينا ألا نسمح لمهمومنا ومتاعبنا بأن تستولى علينا وأن نحرمنا من حقنا العادل فى الحياة والسعادة .

فما نستطيع تغييره علينا أن نبذل الجهد والطاقة لتغييره وما لا نملك تغييره الآن على الأقل فلنلقى إليه بالقارب الفارغ ونسلك بالرضا والصبر والعمل إلى أن نجد ثغره نتمكن من خلالها من اصطياده .. والقضاء عليه .

والحياة يا صديقى انتصارات وهزائم .. ومكاسب وخسائر .. والعقل هو من لا يسمح لهزائمه الصغيرة بأن تجلج حياته بالسواد وتمتص قدرته على المقاومة .

وفى مسرحية عطيل لشكسبير يقول الدوق : إن الرجل الذى يسرقه لص فيتسم ترفعا ، يسترد من السارق بعض غنيمة أما من يخزن بلا طائل فإنه يسرق نفسه مرة أخرى بعد أن سرقها اللص لأنه يضيف إلى خسارته المادية خسارة معنوية جديدة لا تقدر بثمن ! .

أنت تشكو مثلا من قلة الأصدقاء .. لا بأس اصنع كما كان الفيلسوف الفرنسى ديكارت يصنع فى شبابه . فقد كان يقرأ الأدب القديم ويقول إنه يقوم كل يوم بأسفار ذهنية إلى الماضى ليحدث أنبل الناس فى أعظم

العصور ! وأن له معهم صداقات عميقة تعوض قلة أصدقائه أو انشغالهم عنه .

فلماذا لا تقوم أنت أيضا بأسفار ذهنية تصادق خلالها أنبل الناس فى كل العصور ؟ .

أنت مهموم بحياتك ومشاكلك ؟ اذن لماذا لا تصنع كما صنع الآخرون الذين ارتفعوا فوق آلامهم ولم يسمحوا لمشاكلهم بأن تستغرقهم وأن تشل قدراتهم ؟ .

لقد كان الأديب اليابانى جيبينشا إيكو ساخرا عظيما .. وفقيرا أعظم ! فسخر من فقره ومن نفسه ومن كل شيء فى الحياة ولم يتوقف يوما عن الكتابة كان يعيش فى بيت بلا أثاث فعلق على جدران منزله صورا للأثاث الذى كان يود أن يشتريه لو كان معه ثمنه وكان يقدم لتلاميذه فى المناسبات صورا للهدايا التى كان سيتشتريها لهم لو كان معه نقود ! .

وحين اقترب منه الموت أعطى لتلاميذه بمنتهى الوقار والجدية لفافات أوصاهم ألا يفتحوها ، وأن يضعوها فوق جثمانه قبل احراقه ، وحين اشتعلت النار فى الحطب الذى وضع فوقه الجثمان .. وتلاميذه ينوحون ويبيكون انطلقت من اللفائف صواريخ ملونة تفرقع وتطقطق فى مرج فلم يتألك التلاميذ أنفسهم من الضحك من سخرية الأستاذ الذى امتدت سخريته إلى كل شيء حتى إلى الموت ! .

وفى ختام رواية « السمان والحريف » سأل بطل الرواية عيسى الدباغ الشاب الذى التقى به مصادفة بعد ١٥ عاما ، ماذا تفعل الآن ؟ فأجابه : أعايب المتاعب وتعايبنى .. وامضى إلى الإمام بوجه مبتسم .. بوجه مبتسم دائما ! .

وأنت أيضا تستطيع أن تعابث المتاعب .. إلى أن تحقق لنفسك ما تتمناه  
لها فما يبدو مستحيلا الآن .. سيكون ممكنا غدا وما يبدو صعبا الآن سيكون  
سهلا بعد حين والمهم هو ألا نتنازل أبدا عن أهدافنا وألا نتوقف أبدا عن  
الحركة والعمل في اتجاه هذه الأهداف وألا نسمح أبدا لحيثان الهموم  
والمتاعب بأن تصيدنا قبل أن ننجح نحن في اصطليادها !

## صديقى .. من أنت

في فيلم أمريكى قديم ، كان المجتمع الذى يصوره الفيلم يطارد الكتب  
ويحرقها ، لأنه يخشى المثقفين وما تتضمنه هذه الكتب من مبادئ وأفكار وقيم  
عن الحرية ، لذلك زود كل بيت بشاشة تليفزيونية كبيرة لا تعرض إلا مواد  
التسلية ، وأغلق المكتبات وأحرق الكتب .. فهل اندثر الفكر ، واندثر  
المثقفون ؟

بالطبع لا لأن المثقفين تداولوا الكتب العالمية سرا وفروا بأنفسهم إلى  
الغابة ، يحفظون أمهات الكتب بحيث إذا ضبطها حارقو الثقافة ودمروها .. لم  
تضع هذه الكتب إلى الأبد لأنها تحولت إلى كائنات بشرية حية يحفظها عقل  
الإنسان ويرويها لغيره ، وأصبح كل واحد منهم يسمى نفسه باسم الكتاب  
الذى حفظه فهذا اسمه « الحرب والسلام » لأنه يحفظ رواية تولستوى الشهيرة  
ويستطيع أن يقرأها على غيره ، وهذا اسمه « البؤساء » لأنه يحفظ رواية فيكتور  
هوجو وهذا اسمه « آلام فيرنر » لأنه يحفظ قصة الشاعر الألمانى العظيم جوته  
وهكذا .

ورغم انهيارى بفكرة هذا الفيلم - التى تقول إن الفكر لا يموت مهما حاول  
البعض قتله - فقد وجدت فى سيرة الإمام أبى حامد الغزالى قصة تتشابه دراميا  
مع فكرة هذا الفيلم الشهير « ٤٥١ فهرنيت » فلقد روى الغزالى فى كتابه



إحياء علوم الدين أنه هاجر إلى بلدة اسمها جرجان ، ليتلقى العلم فيها عن شيخ اسمه أبو نصر الإسماعيلي ، وبعد سنوات امضاها في الدرس جمع كل ما تعلمه عنه في عدة كتب ، وضعها في مخلاة وحملها مع أمتعته ، وركب مع قافلة راحلة إلى بلدته ، وقبل أن يصل إلى غايته ، هاجم القافلة قطاع الطريق ، واستولوا على حاجيات المسافرين وانصرفوا فخرج وراءهم الغزالي مرتاعا فالتفت إليه زعيمهم وحذره فقال له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقاتي « مخلاقي » فقط فما هي بشيء تنتفعون به فسأله : ما بها ؟ فقال : كتب هاجرت من بلدي لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك شيخ اللصوص وقال له : كيف تدعى أنك عرفت علمها ، وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟! ثم أمر بردها إليه .

ويحكى الغزالي في كتابه أنه قال لنفسه - حين سمع جواب شيخ اللصوص - هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني في أمري فلما وافيت بلدي ، أقبلت على الاشتغال بكتبي ثلاث سنوات حتى حفظت جميع ما فيها فصرت بحيث لو قطع على الطريق لا انجرد من علمي !.

أي أن الغزالي قد أصبح بذلك أقوى من قطاع الطرق ، وكذلك يستطيع كل إنسان أن يكون ، إذا استوعب دروس الحياة وتجاربها وثمرات عقول مفكرها وأدبائها وعلمائها واستفاد بها بحيث لا يستطيع أحد أن يسلبه قدرته على التفكير وإرادته الحرة . فالمعرفة سلاح يستعين به الإنسان على فهم الحياة ومواجهتها وخوض تجاربها ، وحماية حريته وحقه في التفكير والتعبير واختيار الطريق الذي يمضي فيه ، وما من معرفة نستوعبها ، أو تجربة إنسانية نمر بها أو نعيشها عن قرب في حياة الآخرين إلا وتضيف إلى قدرتنا على ممارسة « علم » الحياة الذي قال عنه البيروكامي إنه أصعب العلوم والفنون الكثير .. والكثير ..

لذا قال الشاعر تنيسون على لسان البطل الأسطوري يوليسيز .. أنا جزء من كل ما صادفتي !.

وصدق تنيسون فيما قال !.

فلقد أثبت علم النفس الحديث فيما بعد أن كل تجربة نمر بها تحدث فينا تغيرا معيناً يختلف من تجربة إلى أخرى حسب عمقها وأهميتها ، وكل كتاب نقرأه أيضا يحدث فينا مثل هذا التغير مع اختلاف درجاته ، لذلك يختلف الناس باختلاف تجاربهم وثقافتهم فحتى لو بدأ كل الناس حياتهم في الطفولة بطريقة واحدة فإنهم سرعان ما يختلفون فيما بعد عن بعضهم البعض بسبب اختلاف التجارب التي تمر بهم واختلاف الثقافات التي يستوعبونها واختلاف أنصبتهم من العلم والمعرفة والثقافة .

فقل لي عن التجارب التي مرت بك والتي عايشتها مع أصدقائك ، وعن الكتب التي قرأتها والمعرفة التي استوعبتها أقل لك : من أنت الآن ، لأنك جزء من كل ذلك ، ولأنك اليوم لست أنت الأمس .

وإنما أنت دائما شخص جديد أقوى من القيود وأكثر فهمًا للحياة وخبرة بها عنك بالأمس ، فمن أنت الآن يا صديقي ومن ستكون غدا ؟.

## يا أصدقاء

لا أعرف ماذا فعل أصدقاء أرسطو به حتى قال كلمته المشهورة التي طالما أزعجتني كلما تذكرتها وهي : يا أصدقائي .. ليس هناك أصدقاء !.

ولست من مؤيدي الشاعر الذي خانه بعض أصدقائه فانتقم من كل الأصدقاء بهذين البيتين من الشعر :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة  
فلربما انقلب الصديق فكان أعرف بالمضرة

لأن الحياة لا تستقيم لو عاش الإنسان حياته بلا أصدقاء وبلا مشاركة يتوجس شرا من الآخرين .. ويخص أصدقاءه بهواجسه بحجة أنهم أعرف بالمضرة !.

ولأني أيضا من المؤمنين بأن للصداقة قيمة هامة في الحياة تصبح بغيرها نوعا من الجحيم .

وكثيرا ما يسألني الشباب في رسائلهم إلى بريد الجمعة هل هناك حقا صداقة ؟، وهل هناك أصدقاء ؟، فأجيبهم دائما : نعم ، هناك صداقة وهناك أصدقاء ، لكن المهم هو أن تعرف كيف تختار أصدقاءك .. وكيف تستمع بصداقتهم بلا خسائر نفسية لك أو لهم ، وهي موجودة في الحياة منذ الأزل

وستبقى إلى نهاية الكون وأشهر أصدقاء الزمن القديم هم الحواريون الذين التفوا حول السيد المسيح ونقلوا إلى الدنيا من بعده تعاليمه .. وانتشروا في الكرة الأرضية يبشرون بما جاء به نبيهم وصديقهم . ومن أشهر أصدقاء الزمن القديم أيضا صحابة الرسول - عليه الصلاة والسلام - الذين نصره وآمنوا بدعوته وأصبحوا من بعده حجة في أمور الدين يستفتيهم الناس .. وتطلب الأمصار من الخلفاء إرسال بعضهم إليهم ليعلموهم أمور دينهم ودنياهم . وأشهر صديق في الإسلام هو أبو بكر الصديق ، وقد سمي بالصديق - بتشديد الدال - لأنه صدّق صديقه وآمن بدعوته منذ فاتحه فيما كلف به لأول مرة .

وعلى مر التاريخ دائما كانت هناك صداقة وأصدقاء .. ولعبت الصداقة أدوارا هامة في تاريخ البشرية ، فلولا صداقة أفلاطون لأستأذه سقراط لما وصل إلى العالم شيء من فكر سقراط الذي لم يدون أفكاره ولم يكتب حرفا وإنما دونها أفلاطون في محاوراته فحفظها للتاريخ ، وسبق دائما هناك أصدقاء وهناك صداقة رغم خذلان بعض الأصدقاء لأصدقائهم .. ورغم صيحة يوليوس قيصر الشهيرة وهو ينظر إلى صديقه بروتوس ويتعجب كيف انضم للمتآمرين عليه وكيف طعنه بخنجره في ظهره كالآخرين ، فلقد أساء بروتوس إلى نفسه بغدره بصديقه أكثر مما أساء إلى صديقه أو إلى قيمة الصداقة ، واقرن اسمه في سجل التاريخ بالغدر أكثر مما اقرن بأي شيء آخر .

لكن المهم هو أن تعرف كيف تختار أصدقاءك . لأن صديقك هو مرآة نفسك غالبا وفي الحديث الشريف « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » أي أنك غالبا سوف تكون مثل خليلك في قيمه وأهدافه ونظراته للحياة .. فانظر أولا من تخالل وهل تتوافق أهدافكما وقيمكما أم لا قبل أن تمنحه

شرف صداقتك .. ولكيلا تشكو ذات يوم من انعدام التوافق بينكما .. فليس من الجائز مثلا أن يصادق المستقيم مستهترا والجاد عابثا والمتدين منحرفا .. لأن الصداقة في مثل هذه الحالة لن تصبح صداقة يطمئن بها جانبك .. وتجذ فيها السكينة والاطمئنان ، وإنما سوف تصبح غالبا صراعا بين شخصيتين متناقضتين وأسلوبين متعارضين في الحياة .

لذلك يندر أن تجد - مثلا - إنسانا جادا بين مجموعة من الأصدقاء المستهترين أو كريما بين بخلاء أو مثاليا بين ماديين .. وإنما سوف تجده في الغالب واحدا من أقرانه ، لأن المرء يعرف بأقرانه ، ولأن الطيور على أشكالها تقع .. كما يقولون .

والعلاقات الإنسانية بصفة عامة هي علاقات أخذ وعطاء .. فلا تستمر صداقة تقوم على عطاء من طرف لطرف بغير أن يكون الطرف الآخر قادرا على العطاء لرفيقه .. فالصداقة المثالية والناجحة هي طريق ذو اتجاهين ذاهب وغاد .. وليست أبدا طريقا ذا اتجاه واحد من المنبع إلى المصب .. كعلاقة الأنهار بالبحار التي تصب بها .

والإنسان يحتاج في حياته الخاصة إلى دائرة محدودة من الأصدقاء الحميمين .. ومن يسعده الحظ تعطه الحياة أربعة أو خمسة أو ستة من الأصدقاء الأوفياء الذين نسميهم أصدقاء الروح ، الذين يستطيع أن يخلع أمامهم قناعه وأن يبوح لهم بهواجسه وأفكاره بلا حرج ، والذين يشعر بالأمان النفسي وهو في صحبتهم لذلك قيل : إن حسن اختيار الرفيق أهم أحيانا من حسن اختيار الطريق .. فكل الطرق قد تؤدي إلى روما .. لكن ليس كل الأصدقاء قد يوفرون لك الأمان والاطمئنان .. والصداقة كالزهور النادرة تحتاج إلى رعاية خاصة لكي تزهر ولكي يفوح عطرها .. ومن فنون هذه

الرعاية ألا تكون مطالبك من أصدقائك كثيرة لكي تنعم بصداقتهم للأبد .. لأن الصديق الذي يرهق صديقه بمطالبه النفسية والمادية يخسره سريعا .. ومن فنون الصداقة أيضا أن تكون أكثر استعدادا للتسامح معه ، ولتجاوز هفواته ، وأكثر حرصا على عدم معاقبته على كل شيء وأى شيء .. والشاعر الذي قال :

لو كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه  
محق تماما فيما قاله لأن الحياة صعبة .. والعلاقات متشابكة ولكل إنسان فيها همومه ومعاناته وليس كل الأشخاص على استعداد لتحمل العبء النفسي للوم المستمر والعتاب المستمر ، وعلينا أن نقبل من أصدقائنا بعض ما لا نرضاه .. وأن نغفر لهم بعض إساءاتهم كيلا تنقطع حبال المودة نهائيا بيننا وبينهم .. ولكي تتواصل الحياة ..  
فهل ما زلت يا صديقي تسألني بعد كل ذلك : هل هناك صداقة .. وهل هناك أصدقاء ؟!

## أَصْدَقَائِي السِّتَّة

لكل إنسان منا ستة أصدقاء مخلصون يستطيع أن يستعين بهم على مواجهة الحياة . هؤلاء الأصدقاء هم الذين أشار إليهم الشاعر الإنجليزي كبلنج حين قال : « إن لي ستة من الخدم المخلصين الذين تعلمت منهم كل شيء ، أسماؤهم هي : من وماذا ولماذا ومتى وأين وكيف ! » ولأني ممن يكرهون استعمال كلمة « خدم » و « خادِم » فأني أفضل أن أعتبرهم أصدقاء اعزاء لخدمتي ، وأعتقد أنني من أكثر الناس استفادة في حياتي بخدمات هؤلاء الأصدقاء الأجلاء .. فكلما اصطدمت في حياتي اليومية بشيء لم أفهمه ولم استوعب سره ، لجأت إلى أحد هؤلاء الأصدقاء طالبا معونته ، فإذا قرأت في صحيفة عبارة لم أفهمها لجأت إلى صديقي « ماذا » لأعرف عن طريقه ماذا تعني هذه العبارة .. وما هو المقصود منها .. فإن لم أجد لدى من حولي من الزملاء والمعارف جوابا .. سألت كُتبي ومراجعى .. وإذا قرأت اسم شخصية تاريخية لا أعرفها لجأت إلى صديقي « من » وسألته المساعدة .. وإذا رأيت جهازا من مبتكرات العلم الحديث ، لا أعرف فكرته استدعيت صديقي « كيف » من أجازته وسألته المشورة ، وهكذا في كل أمور المعرفة وشئون الحياة وكلما سألت معارفى وكُتبي سؤالا وحصلت على إجابة شافية أحسست أنني قد ارتقيت قليلا في سلم البشر ، ذلك أنى أؤمن بأنه لا قيمة لإنسان في الحياة إلا

بما يعرفه وبما تعكسه عليه هذه المعرفة من فهم للحياة ومن سعة أفق في التعامل مع الآخرين ومن رقة في المعاملة وحسن المعاشرة .. لأن من يعرف أكثر يكون غالبا أكثر استعدادا للتماس الأعذار للآخرين وأكثر استعدادا للتسامح معهم وأكثر احتراما لآراء غيره .. وأكثر استعدادا للتنازل عن رأيه إذا تبينت له أوجه الخطأ فيه .

كما أنه من المفروض أن يكون أكثر التزاما خلقيا ، باعتبار أن الفضيلة هي المعرفة كما كان يعتقد أبو الفلاسفة سقراط ، إذ لا يمكن في تصوره أن يعرف الإنسان الخير ثم لا يفعله ولا يمكن أن يعرف الإنسان الشر ثم يقدم عليه . فارتكاب الإنسان للرديلة سببه الجهل بالفضيلة عند سقراط ، ولا يمكن أن يكون الإنسان فاضلا إلا إذا كان عارفا بالفضيلة لكي يتبعها . ورغم مثالية الفكرة التي يرى فلاسفة آخرون أنها لا تكفي لتفسير ارتكاب الإنسان أحيانا للشر وهو يعرف جيدا ما يفعله إلا أنى أميل إليها كثيرا وأرى أن المعرفة الحقيقية بالله أولا وبحقائق الحياة لا بد أن تقود الإنسان إلى الفضيلة ، والقرآن الكريم يقول لنا .. « إنما يخشى الله من عباده العلماء » أى يخشاه من يعرفه ويعرف عزته وجلاله ورحمته وغفرانه وسطوته وانتقامه وما يعد به الاتقياء من نعم وما يتوعد به الأشرار من جحيم .

والطريق إلى المعرفة يبدأ دائما بهؤلاء الأصدقاء الستة .. بهذه « المفاتيح » التي تترجم حيرة الإنسان أمام ما لا يفهمه وتحولها إلى أسئلة تبحث عن أجوبة .

وهذه المفاتيح هي التي عرف بها الإنسان أسرار الكون وتفهمها وتميز بها عن الحيوان ، فالشمس تشرق كل يوم من المشرق .. والمطر يهطل من السماء والأمواج تعلو وتنخفض صباحا ومساء أمام الإنسان والحيوان والنبات والجماد

منذ فجر الإنسانية لكن الإنسان وحده هو الذى سأل نفسه « لماذا » لماذا تظهر الشمس وتغيب .. لماذا يسقط المطر .. كيف يعلو موج البحر .. من أين تهب الرياح .. من الذى يدير هذا الكون ؟ .. إلخ .

فقاذه بحثه إلى فهم أسرار الكون والسيطرة على الحيوان والنبات والجماد ومحاولة السيطرة على الطبيعة أو التفاهم معها . فالملك له سبحانه والإنسان هو خليفته فى أرضه لذلك فقد ميزه عن غيره من الكائنات بالعقل .. فاستخدم عقله واستخدم أصدقاءه الستة فى فهم أسرار هذا الكون .. والتكيف معه . والفقيه أبو سفيان الثورى كان يقول إن أول العلم الصمت ثم الاستماع إليه ثم العمل به ، وهذا صحيح لأن من لا يصمت لا يسمع ومن لا يسمع لن يعرف ومن لا يعرف لن يسأل ولن يجادل ولن يفهم ولن يرتقى بمعارفه وخبراته وسلوكه . لذلك فإنى أرى معه أن أول العلم الاستماع إليه فعلا .. لكن ثانيه هو السؤال عما لم نفهم ولم نستوعب ثم العمل به عن فهم واقتناع وإيمان . ورغم وجود مصادر عديدة الآن للثقافة فإن الكتاب ما زال هو المصدر الأساسى للمعرفة ، وسيبقى كذلك فى ظنى لأجيال قادمة ، وإبراهيم لنكولن الذى تولى رئاسة الولايات المتحدة من سنة ١٨٦١ إلى سنة ١٨٦٥ وقاد دعوة تحرير العبيد فى أمريكا ودفع حياته ثمنا لها كان يقول : كل ما أريد معرفته موجود فى الكتب .. وخير صديق لى هو من يقرضنى كتابا ! ، وأضيف أنا إلى كلمته الشهيرة هذه أن خير صديق لى هو من يعيد إلى كتابا اقترضه منى ! لأنى لا أجزع لشيء أكثر من جزعى لفقد كتاب اقترضه صديق منى ولم يرده .. أو ضاع منه فى الزحام .

ولقد أعجبت كثيرا بما قرأته فى قصة حياة ابراهيم لنكولن من أنه اقترض من صديق له كتابا عن حياة جورج واشنطن بطل الاستقلال فى الولايات

المتحدة فشغف به وراح يقرؤه ويعيد قراءته حتى أتلفه المطر وعجز عن رده لصاحبه فأحس بتأنيب ضمير شديد لذلك ولم يجد ترضية يقدمها له سوى أن يعمل مجانا فى حقل صديقه ثلاثة أيام من الصباح حتى المساء يفلح الأرض ويسويها تعويضا له عن الكتاب المفقود . وبقدر إعجابى بهذه القصة .. بقدر ما أشفقت على نفسى وعلى أصدقائى لو كنا قد طبقنا هذا المبدأ على أنفسنا منذ زمن طويل - إذن لعملت فى حقول الكثيرين مجانا .. ولطالبت كثيرين بالعمل فى حقلى بلا أجر شهورا وأسابيع ، لكن من نعمة الله على وعلى أصدقائى أننا جميعا لا نملك حقولا ولا حدائق .. وإلا انكسر ظهرى وظهورهم من العمل فيها بلا أجر خلال السنوات الماضية .

ولأننا نمضى العمر ونحن نتعلم كل يوم جديدا وكلما ارتقت معارفنا أحسنا بحاجة إلى المزيد من العلم والمعرفة .. فعلينا دائما أن نتذكر هؤلاء الأصدقاء الستة .. وأن نستعين بهم فى مواجهة الحياة ومحاولة فهم أغازها فالحياة رحلة مستمرة لمحاولة فهمها ومعرفة أسرارها « والرحلة فى طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى طلب العلم » كما قال ابن خلدون فى مقدمته المشهورة « لقاء المشيخة » هو المقابل القديم للقاء الأساتذة والنقل عنهم وتلقى العلم منهم فإذا لم تكن لنا الآن مشيخة نسعى إلى لقاءها ونسمع منها .. فلنبحث عن المعرفة فى مصادرها العديدة المتاحة لنا مستفيدين بخدمات هؤلاء الأصدقاء المخلصين ! . فهل نفعل حقا ؟ .

## العقل في أمارة

اعتدت أن أنهي «الموسم الثقافي» الخاص بي مع اشتداد حرارة الصيف ، فأتوقف عن القراءة الجادة المرهقة للعقل والتفكير ، ولا أقرأ إلا للمتعة ولا أكاد اقترب إلا من كتب سبق أن قرأتها وأحببتها ، واعتدت أن أعيد قراءتها في هذه الأجازة الموسمية ، فأحس تجاهها إحساسى تجاه أصدقاء قدامى لا أزورهم إلا في الصيف فأجد صدائى بهم ، وأستعيد معهم ذكريات أحلى سنوات العمر .

ومن هؤلاء الأصدقاء القدامى كتب في التاريخ وأعمال أدبية شهيرة تآتى على رأسها بالطبع كل روايات أستاذنا الكبير نجيب محفوظ ، ولكن من بينها أيضا كتبا أخرى ليست مشهورة على نطاق كبير وتربطني بها مع ذلك روابط شخصية قديمة .. إما لأنى عشقتها وإما لأنها أثرت في تفكيرى ونظرتى لبعض أمور الحياة فمن هذه الكتب مثلا رواية عجيبة لمؤلف مصرى بدأ حياته الأدبية مع نجيب محفوظ ، وكتب ثلاث روايات قيمة ، لكنه زهد الكتابة بعدها وانصرف عنها وهى رواية ملهم الأكبر للأستاذ عادل كامل .

في هذه الرواية يصور عادل كامل مجموعة من الشخصيات الغريبة التى يجمعها بيت أثرى قديم في منطقة القلعة يديره خواجه أجنبى يؤجر غرفه لأشخاص من المثقفين الرافضين للقيم البورجوازية ، ومنها قيم الشرف

البرجوازي ، والصدقة البورجوازية ، والطبقية .. والمجاملة .. الخ ويطلقون على أنفسهم اسم «الرفاق الأندال» لأنهم رفاق في السكن وسهرة كل يوم ، ومغالبة الملل لكنهم يفخرون بأنهم «أقوياء» لا يستجيبون للضعف الإنسانى الذى يسمح بقيام الصداقات وما تستتبعه من قيم «مزيفة» ، كالوفاء ، والشهامة .. الخ .. لذلك فهم يتجاورون في سهرة كل ليلة ، ويتجادبون أطراف الحديث ، لكنهم لا يسمحون لأنفسهم بأن يكونوا أصدقاء ! وهم يتشاركون في لعبة قدرة ، يستخدمون فيها رسامة أجنبية متمصرة من تزييلات البيت وخادم البيت «مليم» وقواعد اللعبة تقضى بأن يختار مليم أحد الأثرياء ثم يتقدم منه ليقول له إنه خادم سيدة ثرية رآته وأعجبت به ، وأنها تطلب رقم تليفونه لتتصل به وتتعرف عليه ، فيتشئى الثرى ويعطيه رقم تليفونه ومنحة مالية صغيرة ، ويعود مليم للبيت فيسلم المنحة الصغيرة لكبير الأندال وهو أكبر الرفاق سنا ورقم التليفون ، فتتصل المعجبة بالضحية وتبته اعجابها .. ثم تنهى إليه أنها سترسل إليه رسالة حب مع خادمها إلى أن تتصل به ثانية ، وتكتب الرسالة وتعطيها لمليم ، فيسرع بها إلى الثرى الذى يسعد كثيرا ، «وتسبب» فرامله فيمنح رسول الغرام منحة مالية كبيرة يثبت بها للمعجبة الوهانة كرمه ، فيجرى مليم حاملا النقود إلى المثقفين العاطلين الجائعين الذين يمضون أيامهم في القراءة ومضغ الكلمات ، فيشبعون جوعهم ويروون ظمأهم ويواصلون السخط على المجتمع وقيمه ومثالياته !

وتتكرر اللعبة مع آخر وخلال اقامتهم في بيت القلعة يمارسون نشاطهم السرى في كتابة المنشورات وتوزيعها إلى أن يفاجأوا بأنهم قد احترقوا من الداخل ، وأن أحدهم عميل للمباحث ويلقى القبض عليهم . ويتفرقون في الحياة ، ويضطر أحدهم وهو ابن باشا ثرى إلى العودة إلى

كنف أبيه « المستغل » ثم يتواءم عبر تجارب طويلة مريرة مع المجتمع الذى ثار عليه ورفضه من قبل . أما ملهم وهو أكثرهم صدقا مع نفسه فقد لاطم الحياة ولاطمته حتى تحول فى نهاية الرواية إلى « محمد بك سلام » « رجل الأعمال المعروف » وتنتهى الرواية بقاء مثير بين الثائر المنهزم ابن الباشا وبين الوجيه محمد بك سلام ، الذى يصر على أن يقدم نفسه له كخادمه السابق ملهم فيصر ابن الباشا على أنه محمد بك وأنه يستحق البكوية عن جدارة أكثر مما يستحقها كثيرون ممن يحملونها ! لماذا أتذكر هذه الرواية الآن ؟ هل لأن فى الحياة صورا عديدة تذكرنا « بالرفاق الاندال » الذين يعتبرون الصداقة ضعفا إنسانيا ، ويفتخرون بقدرتهم على نبذ هذه المشاعر الإنسانية « الرخيصة » أم لأن فى الحياة نماذج أخرى شبيهة بهؤلاء الذين يتفقدون الآخرين دائما وهم أحق بالانتقاد ، والذين لا يؤمنون إلا بأنفسهم .. ولا يستطيعون أن يعترفوا لأحد بفضل أو ميزة أو معرفة

لا أستطيع أن أجزم بسبب .. لكنه ربما يكون تأثير الحر سببا كافيا لاختلاط التفكير وتشابك الصور .

ومن هذه الكتب أيضا .. « مذكرات شارلى شابلن » .. ولا تعجب لذلك ، فلعله من الكتب القليلة التى أثرت فى وجدانى ومازلت استمتع بقراءتها فى كل مرة تمتد فيها يدي إليها .. ومازلت تؤثر فى صورة الصبي الشرير الضائع الذى هجر أبوه أمه فكره وشقيقه وأمّه يعانون البؤس إلى الحد الذى جئت معه الأم بسبب سوء التغذية وواجه الصبي مع شقيقه الحياة القاسية بلا مال ولا أهل .. ولا معين يلتقط من صندوق القمامة فضلات الطعام .. ويتحلب ريقه وهو يشاهد من خلف الزجاج رواد مطعم يأكلون ويشربون .. ثم يعمل لقاء بنسات قليلة فى مغلق للخشب قاطعا للأخشاب ،

ويسافر شقيقه على ظهر سفينة بريطانية إلى الهند ليكسب بعض القروش فيبيت فى الشوارع الباردة ويتسكع فى الطرقات ويعمل ليوم واحد وهو فى سن العاشرة عاملا بمطبعة فيطرده صاحبها خوفا من قوانين تشغيل الصبية ، ويعيش أياما يصبح فيها فنجان الشاي الساخن أمنية من أمنيات العمر ، ثم تقوده قدماءه إلى مكتب لتشغيل فتاى المسرح فيدخل مع الداخلين ، فيراه مدير المكتب ويسأله ماذا تريد ؟ فيقول بعد تردد ، هل لديكم أدوار للأطفال ؟ فيمسك مدير المكتب بيده ، وبدلا من أن يدفعه خارج المكتب كما توقع يدفعه إلى سكرتيرة المكتب ثم يقول له : اعطها اسمك وعنوانك وانصرف ، فيفعل ويغادر المكتب وبعد أيام نجيه رسالة بالبريد تطلب منه التوجه إلى أحد المسارح حيث تجرى بروفات مسرحية فيها دور لصبي صغير .. فيضع قدمه على أول طريق الفن .. ولا ينسى أن يسجل أنه دخل عالم الفن بحثا عن الطعام لا عن المجد .. فأعطاه الفن الطعام والمجد والشهرة والمكانة العالمية .

ومن هذه المذكرات أذكر دائما هذه الرسالة التى بعث بها إلى شارلى شقيقه سيدنى من رحلة عمل خارج لندن يعاتبه فيها على إهماله الرد على رسالة سابقة له ، فيقول له فيها : « إن ظروف الحياة لا تسمح لنا بتوقف إهمال الرد على الخطابات ونحن وحيدان تماما فى هذا العالم بلا أب أو أم أو أهل أو أصدقاء .. فلماذا لم ترد على رسالتى يا شقيقى الوحيد ؟ » .

فلا أذكر أنى قرأت كلمات هذه الرسالة مرة ولم أتوقف عندها وربما أتساءل كم هى عديدة اللحظات التى يحس فيها الإنسان أحيانا بأنه وحيد تماما فى هذا العالم الواسع القاسى ؟ ومن هذه الكتب أيضا .. رواية « المسخ » لكافكا .. هذا الكاتب التشيكي العجيب إذ ما أكثر اللحظات أيضا التى

يحبس الإنسان فيها بأنه شبيه ببطل رواية المسخ.. موظف الأرشيف الغارق بين الأوراق والملفات الذي تلتهم الأوراق عينيه وذهنه ويمضي به العمر وحيدا بلا متعة ولا راحة فيتسلط عليه الإحساس بأنه حشرة من النوع الذي يعيش على التهام الأوراق فإذا به يتحول فعلا إلى حشرة كبيرة وتنبت في جسمه شعيرات كشعيراتها يحاول أن يخفيها فلا ينجح ، وتنتهي الرواية وقد تحول في الحقيقة لا في الخيال إلى حشرة زاحفة تخرج من البيت زحفا إلى العمل وتعود منه زحفا .

لماذا أتذكر هذه الصورة البشعة الآن ؟  
.. مرة أخرى لعله الحر !.

## صَبَاحُ الْخَيْرِ

كم مرة سمعت هذه العبارة ، وكم مرة حاولت أن تفكر في معناها ؟  
إنك تسمع صديقك يقول لك وهو منفعل : إنني لا أجد نفسي في هذا العمل !.

وصديقا ثانيا يقول لك : إنني لا أجد نفسي في هذه الحياة ! وصديقا ثالثا يقول متفكرا : إنني أبحث عن نفسي فلا أجدها !.  
فما هي هذه النفس التي يبحث عنها الإنسان وهي داخله ؟  
الحق أن هذه العبارات « الخيالية » صحيحة تماما ، لأن كل إنسان منا يبحث عن نفسه ، ويحاول أن يعرفها لكي يتواءم معها ويعقد معها معاهدة سلام ، ولأن رحلة الحياة هي في حقيقتها رحلة الإنسان للبحث عن نفسه وعن سعادته .

فالذين لا يعرفون أنفسهم جيدا في حالة حرب مستمرة معها ، لا تهدأ نفوسهم ، ولا يهدأون معها والذين يعرفونها جيدا هم السعداء الذين نقول عنهم إنهم يعيشون في سلام نفسي لا تؤرقهم الرغبات التي تتجاوز قدراتهم ، ويحيون حياة يرضونها مهما كان نوع هذه الحياة ، ويعملون أعمالا يهونونها ويتلذذون بأدائها مهما كان عائدها أو مستواها !.

ومنذ قديم الزمان ، والإنسان يبحث عن نفسه ، ويحاول أن يعرف



نوازعها ودوافعها وما تحبه وما لا ترضاه .

وعلى واجهة معبد دلفي في أثينا القديمة ، كانت هناك عبارة تقول « اعرف نفسك بنفسك » وحين جاء سقراط اتخذ من هذه العبارة شعارا له ، وانطلق يحاول أن يعرف نفسه ونفوس الآخرين ، ويتساءل عن معنى كل شيء .

ومن هذه العبارة أيضا جاءت جذور علم التحليل النفسي الذي يقسم النفس البشرية إلى دوائر الشعور واللاشعور ، ويعتمد في العلاج على مساعدة المريض على أن يعرف ما ترسب في أعماقه من سنوات الطفولة والصبا والشباب ، ويفسره بعض تصرفاته ونوازعه ويختار به دائرة المرض إلى الشفاء حين يعرف هذه الحقائق .

وبعد سقراط بعشرات القرون جاء شكسبير فقال : « أصدق نفسك تصدق الناس جميعا ! » وهذا صحيح ، لأنك إذا عرفت نفسك جيدا كنت صادقا معها .

وإذا كنت صادقا مع نفسك فلن تكذب على أحد ، ولن تكون في حاجة إلى ذلك ، لأن من يكذب على الآخرين يكذب على نفسه أولا ، فإذا عاهد نفسه أن يصدقها في كل لحظة كان صادقا مع الآخرين .

وكثيرا ما يكتشف الإنسان بعد أن يسير طريقا طويلا أن هذا الطريق لم يكن له من البداية ، لو أنه عرف نفسه جيدا ، واكتشف حقيقة رغباتها وقدراتها وأهدافها الحقيقية في الحياة ! .

وعندما يحدث هذا الاكتشاف المفاجئ كثيرا ما يتغير خط حياة الإنسان من حياة إلى حياة ، أو من عمل إلى عمل أو من غاية إلى غاية أخرى ! . ولقد كان سقراط نقاشا ، فأهمل مهنته وأسرته ، وانطلق يبحث عن

الحقيقة ويحجب الشوارع ، يوجه للجميع أسئلته الحائرة ، فإذا قال له أحد صباح الخير أجابه : وما الخير ؟ ، فإذا قيل له هو الفضيلة ، تساءل وما الفضيلة ؟ ثم ما العدل ، ما الشجاعة ، ما الديمقراطية ؟ ... الخ هذه التساؤلات الحائرة . وكان هدفه الوحيد منها ، هو الوصول إلى الحقيقة عن طريق استبعاد الباطل ، وكان يقول عن نفسه إن أمه كانت قابلة تولد النساء ، وأنه يقتنى خطاها فيولد العقول ويساعد غيره على أن يخرج آراءه إلى الحياة ! .

ولا غرابة في ذلك ولا جديد فيه ، لأننا مازلنا نبحث عن أنفسنا وعن الحقيقة ، وعن السعادة وعن معاني الأشياء منذ هذا الزمن البعيد ، وقليل ما نجد لها ، وكثيرا ما نضل الطريق إليها .

فإذا قلت لي يا صديق ذات يوم صباح الخير فسمعتني بغير إرادة مني أقول لك فجأة : وما الخير ؟ فلا تحسبنى أسخر منك ، إذ ربما أكون قد اكتشفت نفسي فجأة لحظتها ، وبدأت أفكر في البحث عن عمل آخر ! .

## تأملات.. في الحرية

نصيحة مني إذا زرت بلدا لأول مرة فلا تسأل صديقا مقيا فيه عما يجب أن تراه في هذا البلد !. فالمقيم يألف الأماكن والأشياء ولا يرى فيها غالبا شيئا يستحق المشاهدة .. وإذا استشرته أرخى عليك من فتوره ما يصدك عن زيارة كثير من الأماكن التي تستحق الزيارة بالفعل . وتجربتي خير دليل على ذلك فحين زرت لندن لأول مرة من ١١ سنة طلبت من صديقي المقيم هناك أن نذهب لمشاهدة ركن الخطباء في حديقة هايد بارك الذي قرأت وسمعت عنه الكثير فقال لي صديقي بلهجة العلم بيواطن الأمور : إنه ليس سوى أكذوبة شهيرة وخدعة سياحية يضحكون بها على السياح ، فمعظم الخطباء دجالون وبعضهم نصابون يشغلون المستمعين بأحاديثهم الجذابة في حين يقوم أعوانهم بنشل جيوبهم ! فنفرت من مشاهدته وعجبت من هذه الخدعة الشهيرة التي أثارت خيالنا طويلا عن حرية الرأي في بريطانيا ، وكيف يستطيع أى إنسان أن يعتلى كرسيا وسط الناس ويخطب في مستمعيه ويدعو إلى أى رأى يراه مهما كان جريئا وغريبا ، ونسيت ركن الخطباء في زيارتي المتكررة للندن إلى أن وجدت نفسى خلال زيارتي للندن في العام الماضى خاليا من الارتباطات عصر أحد أيام الأحد فقررت أن أغامر بالذهاب لمشاهدة ركن الخطباء مع الاحتراس التام من النشالين والنصابين ! وما أن ذهبت إليه . ووقفت في

حلقة أول خطيب واستمعت لما يقول وما يجرى حتى ندمت على ما ضاع من زيارتي للندن بغير أن « أحج » إلى هذا الركن الشهير ، وأمضيت ثلاث ساعات أنتقل من حلقة إلى أخرى ومن خطيب إلى آخر وأنا مستمتع بما أسمع وأرى وأتأمل . وحين ذهبت إلى لندن في الشهر الماضى كان ركن الخطباء هو أول مكان زرته فيها ، وبحث فيه عن خطباء العام الماضى فوجدت بعضهم ما زال يمارس هوايته ووجدت وجوها جديدة تعتلى كراسى الخطابة وتنفس نسيم الحرية في مناخ يجبر الإنسان على احترام حرية الآخرين في إبداء آرائهم مهما بدت له غريبة أو غير مقبولة ، ففي حلقة كبيرة حول متحدث أسود اللون خفيف الظل استمعت بحديثه ضد العنصرية ، وضحكت على تعليقاته اللاذعة ربما بأكثر مما ضحكت في مسرحية « إجر وراء زوجتك » التي شهدتها في هذه الزيارة ودفعت ثلاثة عشر جنيها استرلينيا أى ما يقرب من خمسين جنيها مصريا ثمنا لتذكرتها ، وكان أكثر ما يثير متعة المستمعين هو كلمات الخطيب ضد المرأة فهو - كما يقول - يحارب ضد شيئين فقط في حياته : التمييز العنصرى والنساء اللاتي لا يرى لهن دورا في الحياة سوى إنتاج لبن الرضاعة ! ومع ذلك فإن أكثر من يستمع إليه ويستمتع بأحاديثه وتعليقاته الذكية من النساء ! وفي حلقة سمعت خطيبا يخطب ضد الماركسية والاشتراكية وإلى جواره بالضبط خطيب آخر يدعو إليهما ، وهذا يصل إليه صوت ذاك .. ولا أحد يعترض على الآخر .

وفي حلقة ثالثة سمعت خطيبا إيرانيا يهاجم الحمينى ، وعلى بعد خطوات منه خطيب آخر يدعو للمبادئ الخمينية .

وفي حلقة رابعة شاهدت أمريكيا زنجيا يدعو للإسلام ويمسك بيده نسخة مترجمة للإنجليزية من القرآن ويطلب مستمعيه بقراءته مؤكدا لهم أن

من يقرؤه يحصل على معرفة جديدة تثرى معارفه بحقائق الحياة وليس ضروريا أن يتخلى عن دينه لكن من واجب كل إنسان أن يطلع عليه لأن أكبر آفة للإنسان المتحضر أن يكون جاهلا وأن يصدر أحكامه بغير دراسة ومعرفة ، والمستمعون يسمعون له باحترام ويناقشونه في أدب وكانت حلقة من كبرى الحلقات ومعظم مستمعيه من الانجليز الذين على استعداد لأن يسمعوا أى رأى ... وحين زرت حديقة هايد بارك هذا العام لم أجد هذا الخطيب الزنجى الأمريكى ، لكنى وجدت هذه المرة انجليزيا مسلما يرتدى الجلباب والكوفية ويمسك بالمصحف المترجم ويدعو للإسلام وإلى جوار هذه الحلقة وفى أماكن مختلفة من الحديقة وجدت ٤ خطباء يدعون للتعالم المسيحية ويلقون عظاتهم على المستمعين وبين هذا وهؤلاء استمعت إلى « صعلوك » يدعو إلى دين جديد هو عبادة الموسيقى زاعما أنها كفيلة بعلاج كل الشرور والآثام فى الحياة .. واستمعت بمناقشة المستمعين الساخرة له وكان أحدهم يفجر الضحكات الصاخبة بتعليقاته اللاهجة ، وبلغ الذروة حين قال الصعلوك فى سياق حديثه : إننى إنسان .. فقاطعه المستمع باسم : لا تكذب يا صديقى ! ولم يغضب الخطيب ولم يشتبك معه فى مشاجرة .. فلا مجال لذلك فى هايد بارك .. ولا مجال للعنف والانفعالية التى تفسد علينا حياتنا ، ومن حق كل إنسان أن يقول ما يشاء ومن حق المستمعين أن يعترضوا عليه وبأشد العبارات أحيانا لكن فى إطار الرأى والكلام فقط .. فالحوار فى حد ذاته متعة عقلية وليس لدى أحد استعداد لأن يفسد هذه المتعة بالانفعال والعنف والشجار .. لهذا فأنت فى هايد بارك تنتقل من حلقة تهاجم حزب المحافظين الحاكم إلى حلقة تهاجم حزب العمال المعارض .. ومن حلقة تدعو للإسلام إلى حلقة تهاجمه ومن حلقة تدعو للمسيحية إلى حلقة تهاجمها ومن حلقة تدعو للحق الفلسطينى إلى

حلقة تدعو لأباطيل إسرائيل ، ومن حلقة تهاجم التزمت الأخلاقى إلى حلقة تدعو إلى التشدد فى القسك بالفضائل الدينية بغير أن يخرج أحد على آداب الحوار .. ومن عجب أن من يناقشون قضايا الشرق الأوسط من العرب فى حديقة هايد بارك يتأثرون بهذا المناخ الذى يقدر حرية الرأى ويحترم الآراء المخالفة ويذكرنا بكلمة فولتير الخالدة لجان جاك روسو حين حكمت السلطات السويسرية بإعدام كتاب « العقد الاجتماعى » وكان فولتير لا يقر آراء روسو فيه : إننى لا أؤمن برأيك لكنى على استعداد لأن أموت دفاعا عن حقك فى أن تبديه وتعلنه على الناس ، كما يذكرنا بأن خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز قد بدأ عهده بإلغاء مبدأ تجريم الخلاف فى الرأى . يتأثر القادمون من الشرق الأوسط بهذا المناخ السائد فتراه فى الحديقة يناقشون بحرية وباحترام لآراء المخالفين مالا يجروون على مناقشته فى بلادهم .. ويتحاورون فى هايد بارك بالمنطق الهادئ مع خصومهم الذين لا يستطيعون الحوار معهم إلا بالعنف فى منطقتنا المنكوبة بالانفعالية .

فهل عرفت الآن لماذا ندمت كثيرا على أنى لم أتعرف على ركن الخطباء فى هايد بارك سوى فى العام الماضى فقط ؟.

المطار إذ تفاجئني الرغبة في النوم وأنا أنهى اجراءات الجمارك والجوازات في المطار.. وأبذل مجهودا جبارا للاحتفاظ بعيني مفتوحتين حين أصفح من يستقبلني من الأصدقاء..

وفي إحدى زيارتي الأخيرة للندن استقبلني صديق القديم الذي يعرف عاداتي جيدا وحمل عني حقيقتي بشهامة ثم فتح لي الباب الخلفي لسيارته ودعاني للدخول فلما حاولت الركوب بجواره لتتحدث خلال الطريق قال باسمي : أى كلام يا صديقي اركب في الخلف لتنام «كالعادة» ثم نتحدث غدا.. وفي لندن أقمت خلال زيارتي الأخيرة في شقة مفروشة لأول مرة بدلا من الفندق بعد الارتفاع الجنوني في أسعار الإقامة بالفنادق خلال العامين الأخيرين.. وعندما وصلت إليها وجدت صديقي قد أجر لي الشقة.. وملا ثلاجتها بالطعام والمطبخ بعلب الشاي والقهوة اللازمة.. وقبل أن يغادر الشقة اكتشف أن لمبة المطبخ تالفة وتذكر أنه لا يوجد ملح بالمطبخ.. فغادرني سريعا ليحضر لي لمبة جديدة وعلبة من الملح.. وطالبي بانتظاره لعدة دقائق وشدد على أن أتبه لجرس الباب حين يدقه من أسفل العمارة فأفتح له عن طريق زرار داخل الشقة الباب الخارجي للعمارة ليدخل ووعدته خيرا ودخلت إلى غرفة النوم لأخرج ثيابي من الحقيبة وأرتبها.. ثم ارتديت البيجامة وجلست على السرير في انتظاره.. ثم تمددت لأريح ظهري.. وأنا مصمم على انتظاره ثم رحت في سبات عميق!!

وجاء صديقي المخلص يحمل الملح واللحمة ودق جرس الباب فلم أسمع.. فخرج إلى أقرب تليفون وطلبني بالتليفون فلم أسمع جرس التليفون الموجود في غرفة المعيشة.. فعرف أنني قد بدأت زيارتي «رسميا» للندن.. وعاد ادراجه ضاحكا.. وبنفس هذه الطريقة «الرسمية» بدأت كل برامج رحلاتي خلال

## أيام من العمر

أسعد أوقاتي عند السفر.. وأشقاها أيضا!! فأنا أحب السفر لكني لا أحب وسائله من الطائرة إلى الباخرة إلى القطار إلى السيارة.. وأتمنى لو كان الإنسان يستطيع أن يتقل من مكان إلى مكان بمجرد الإرادة وليس بركوب وسائل السفر المختلفة.. بمعنى أن يقرر السفر إلى لندن أو أسوان أو الاسكندرية.. فيغمض عينيه ثم يفتحها فيجد نفسه في المكان الذي يريده بغير تكبد معاناة السفر.. وأوقاته البطيئة المملة.

وخلال السنوات العشر الأخيرة لم أركب الطائرة مرة إلا وأنا شبه مغشى على ، بسبب عدم النوم في الليلة أو الليالي السابقة ، لأن كل سفر يحتاج إلى إعداد واستعداد ، ودائما اكتشف أن على أن أكتب الكثير قبل السفر لينشر خلال غيابي ، فأصبح روتيني الدائم منذ عدة سنوات كلما استعددت للسفر في رحلة للخارج أو الداخل هو أن أجلس إلى مكتبي الصغير في مسكني لأكتب «الواجبات» المقررة.. فيسرقني الوقت حتى الصباح.. وأحيانا إلى ما قبل موعد السفر بساعة فأنهض من وراء المكتب لأخلق ذقني وارتي ملابسي وأحمل حقيقتي وأهرول إلى المطار بغير نوم ممنا نفسي بالنوم في الطائرة كما يفعل «الوجهاء» من معتادي السفر فتمر ساعات الرحلة وأنا مفتوح العينين.. مصدع الرأس.. مختل التوازن.. أما أصعب أوقاتي فتأتي عند الوصول إلى

السنوات الأخيرة وهو تجديد في برامج تنظيم الرحلات الخارجية أرجو ألا ينسى منظمو الرحلات السياحية في العالم أن يسجلوه باسمى إذا غيروا برنامج اليوم الأول التقليدى من الوصول .. ثم حفل الاستقبال .. إلى الوصول .. ثم النوم إلى صباح اليوم التالى لاستعادة النشاط !!

لكن الأمر يختلف قليلا عند السفر بالبحر .. لأن رحلة الباخرة بالأيام ورحلة الطائرة بالساعات ، لذلك احتجب في اليوم الأول في كابين الباخرة لأشبع حاجتى من النوم ، ثم أخرج إلى الصالون لأتمس التسلية وقطع الوقت خلال الرحلة الطويلة ، ولقد سافرت بالباخرة ثلاث مرات إلى إيطاليا واليونان وعبرت البحر المتوسط في رحلة تستغرق ٥ أيام طويلة بطيئة ، وسافرت بالباخرة النيلية مرتين ذهابا وإيابا من أسوان إلى أبى سمبل في رحلة تستغرق ٢٥ ساعة .. تسبح خلالها المركب كالبطة الزاحفة فوق مياه النيل الهادئة ، وكانت آخر رحلاتي النيلية منذ حوالى عشرين سنة لأكتب تحقيقا عن معابد أبى سمبل التى تم نقلها وقتها من موقعها القديم في بطن الجبل إلى موقع أعلى لكيلا تغرق في مياه بحيرة السد ، ولأسجل لحظة تسلل أشعة الشمس لأول مرة بعد نقل المعبد إلى قاعة قدس الأقداس في موعدها الطبيعى كل سنة خلال شهر فبراير .. وهى معجزة فعلا من معجزات المهندس الفرعونى القديم الذى صمم وأقام هذا المعبد ، لأن قاعة قدس الأقداس تمتد داخل المعبد إلى مسافة لا تقل عن ١٢ مترا ، ولا تدخلها الشمس إلا مرتين كل سنة إحداها في فبراير كل سنة فتسلل أشعتها إلى عمق المعبد لتضىء وجهى التمثالين المنتصبين فوق كرسى العرش في القاعة الداخلية وحين سافرت إلى هناك كان معبد أبى سمبل قد انتهت أعمال نقله وإقامته بالخبرة المصرية والسويدية لأن السويديين هم ملوك أعمال الحجر وفك وإعادة تركيب أحجار التماثيل والمعابد والقصور

القديمة ، وكان خبراء الآثار المصريون في قلق شديد مع اقتراب الموعد السنوى لدخول أشعة الشمس إلى قدس الأقداس .. فإذا وصلت إلى وجهى الملك رمسيس وزوجته الملكة نفرتارى في موعدها كان ذلك يعنى أن المعبد قد تم تركيبه بنفس زوايا موقع المعبد القديم ، أما إن لم تصل فعناه العكس .. ومعناه أن يفقد هذا الأثر الرائع المنحوت في الصخر إحدى ميزاته .. ولهذا ركبت الباخرة النيلية الصغيرة لتسجيل هذه اللحظة التاريخية .

وكان الوقت على المركب النيلية « الدكة » يمضى بطيئا متثاقلا .. فليس على المركب من وسائل التسلية المعروفة في بواخر الركاب التى تمخر أعالي البحار شيئا ولم يكن أمامى مفر من محاولة القراءة واجترار الأفكار .. وحيدا في صالونها .. وبين حين وآخر اتسلل بنظراتى إلى الركاب الآخرين لأرقبهم واتسلى بملاحظة تصرفاتهم وأحاول التنبؤ بشخصياتهم .. وهى عادة ذميمة من عاداتى حين أكون على سفر بلا رفيق يشغلنى ويهون على محنة ساعات السفر .. وهى محنة فعلا لمن كان وحيدا وبلا رفيق .. لهذا حرص العرب القدماء على أن يسافروا في صحبة .. واهتموا باختيار رفيق السفر .. أكثر من اهتمامهم باختيار الطريق الذى يقطعونه إلى هدفهم .. وقالوا إن الرفيق قبل الطريق .. واخترعوا الحدا أى الغناء خلال الرحلة فوق الجبال ليلىتمسوا التسلية أثناء السفر .. لكننا الآن نسافر فرادى .. ونضع في آذاننا بدلا من الحدا سماعة استريو لنسمع الموسيقى التى تضيعها الطائرة .. فلا تبدد الموسيقى وحشتنا ومازالت أذكر ضيق بوحدتى وأنا جالس في صالون الباخرة الدكة .. وركابها القلائل يتناثرون فيها في حلقات متباعدة وكلهم عازفون عن التعرف بالآخرين .. مع أن رحلات البواخر هى دائما خير مناسبة للتعرف بأصدقاء جدد ..

المهم جلست وحيدا في صالون الدكة اقطع الوقت بالقراءة وأرقب وجوه

الركاب .. ولا مفر أمامي من ذلك مع أن « من راقب الناس مات غما » كما يقول الشاعر لكن ماذا أفعل بوقتي .. وأنا اقرأ قليلا وأسرح كثيرا .. ولا أجد ما أفعله سوى النظر إلى الآخرين !!!

وكان الآخرون الذين يشاركونني الرحلة رجل آثار وزوجته وأبناءه وكان الرجل في الخامسة والخمسين تقريبا والزوجة شابة في الثلاثين وجميلة .. ثم مهندسا شابا آخر وزوجته ، وزوجين شابين يبدوان في مظهرهما كطالبين من طلبة الجامعة ، وكانا الوحيدين اللذين يتبادلان الكلام والضحك ويتلهفان على التعرف بالآخرين ، ثم مهندسا يبدو مهذبا ويسافر وحيدا وكعادتي في مثل هذه الرحلات البطيئة كنت قد وثقت صلاتي بأهم شخصية في نظري من طاقم الباخرة وهو السفرجي !! فبعد فك مغاليقه بالوسائل التقليدية .. بدأت ألاحقه بطلباتي وأسألني .. شاي .. قهوة .. أسبرين .. وكان نوبيا طيبا في الستين تقريبا من عمره ومتزوجا حديثا للمرة الثانية من زوجة في الثامنة والعشرين من عمرها .. ولم يلبث أن اطمأن إلى فحكى لي عن زواجه الثاني .. وكيف اضطر إليه بسبب انصراف زوجته الأولى عن الاهتمام به إلى أولادها الكبار واعتقادها أن دور الزوجة في حياة زوجها يتوقف عند سن الخمسين .. لهذا لم تنزعج حين علمت بنيته في الزواج من أخرى صغيرة السن .. ولم تر في ذلك ما يستحق لوم زوجها !!

فقلت له .. يا بختك يا عم بسطاوى !! وعدت أحاول القراءة حتى حان موعد الغداء ومر بسطاوى بين الركاب يدق الدونج دقاته الموسيقية المعروفة ليدعوهم إلى الغداء .. والدونج هو صينية نحاسية يدقها السفرجي بعصا خشبية صغيرة .. فتصدر عنها أصوات رنانة تقع في أذن الجائع موقعا أجمل وأحلى من موسيقى فاجزر وبرامز ..

فنهضت مسرعا إلى قاعة الطعام .. ولاحظت أن الزوج الغيور قد

اصطحب أسرته إلى الكابين لتناول غداءها فيها بعيدا عن عيون الركاب .. وكذلك فعل المهندس الآخر وزوجته .. ولم يجلس إلى المائدة سوى الزوجين الشابين والمهندس الوحيد وأنا .. وعلى المائدة تم التعارف بيننا وعرفت أن المهندس الشاب يعمل في أبي سمبل مهندس انشاءات وأن الزوج الشاب طبيب وقد جاء مع زوجته الشابة إلى أبي سمبل في رحلة لكيلا تمل الزوجة رتابة الحياة في كوم امبو ..

وعقب الغداء استأذن المهندس الشاب وانسحب إلى غرفته لينام ساعة القيلولة واستأذنت زوجة الطبيب وذهبت إلى غرفتها ، وسألني الطبيب الشاب : هل تنام في الظهر ؟ .. فقلت له : ولا في الليل !! فسعد بذلك وانطلق يتحدث حتى استقيظت زوجته وانضمت إلينا واستيقظ المهندس الشاب ولحق بنا ولم نفرق بعدها .. فعندما جاء الليل سعدنا إلى ظهر الباخرة لنستمع بنسيم الصيف ورؤية البدر الذي أكدت زوجة الطبيب أنه سيظهر هذه الليلة مكتملا .. فلم يظهر أو ظهر وحالت السحب السوداء الكثيفة دون أن نراه .. ولم يؤثر ذلك في استمتاعنا بهدوء الليل ونسائم الصيف الرطبة والحديث ذى الشجون بين مسافرين لا شاغل لهم سوى قطع الوقت وانقضت الجلسة بعد الثانية صباحا .. ونزلت إلى الكابين فلم أستطع النوم قبل الرابعة .. ولم أكد استسلم له .. حتى سمعت صوت طرقات على بابي ظننتها في البداية حلما .. ثم لم ألبث أن تأكدت أنها طرقات حقيقية على باب الكابين فتساءلت شبه نائم : من ؟ فجاءني صوت الطبيب وزوجته يقولان في حيوية : اصبح يا أستاذ لنرى شروق الشمس فوق المركب !!

شروق الشمس ! إنني استجيب أحيانا لتزوات من هذا النوع .. وحين كنت طالبا بالجامعة كنت عضوا في جمعية ثقافية كان اسمها غريبا هو جمعية الصعاليك وكانت تعقد إجتماعات دورية للقراءة والمناقشة وتطالب أعضائها

بالتمتع بجمال الطبيعة وبالاجتماع لرؤية غروب الشمس مرة كل أسبوع عند سفح الهرم ولرؤية شروقها مرة كل شهر فوق جبل المقطم . لكن شروق الشمس هنا فوق الباخرة المدكة وأنا لم أتم سوى أقل من ساعة .. شئ آخر ! وحاولت الاعتذار .. فلم يترشح الزوجان الشابان من أمام الباب .. وطار النوم من عيني فنهضت متثاقلا وارتديت ملابسى وخرجت فوجدت الطبيب يرتدى المايوه وزوجته البنطلون وفى قمة النشاط .. فقلت لهما أنا جاهز هيا إلى شروق الشمس .. وتحركنا إلى السلم .. وقبل أن نصل إلى الدور العلوى توقفت فجأة كأنى تذكرت شيئا ثم طلبت منهما مصاحبتى وعدت أهبط إلى الدور السفلى وتوجهت إلى كابين المهندس الشاب رفيق السفر .. وطرقت باب غرفته بعنف وصحت به مصطنعا الجدية الشديدة : يا مدحت ييه يا مدحت ييه ؟ فأجاب من الداخل مفزوعا : نعم ؟

- اصح !

- لماذا ؟

- لترى شروق الشمس من فوق ظهر المركب ..

فأجاب مذهولا : شروق إيه ؟

فقلت بنفس الجدية : شروق الشمس يا باشمهندس .. أنت مش فنان والّا إيه ؟

وتخيلت حاله فى الداخل وهو يساوره الشك فى جنونى .. قبل أن يقول بتسليم : يا فلان ييه أنا مش فنان .. أنا عايز أنام !!

لكن هيات .. فلم اترشح من أمام الكابين .. حتى خرج مرتديا ملابس له لاعتنا فى سره اللحظة التى تعرف فيها بنا .. وتوجهنا جميعا إلى سلم الباخرة لنصعد إلى أعلى .. وعلى السلم أيضا فاجأنى خاطر آخر فسألت زوجة الطبيب : لكن ماذا نفعل إذا عاكستنا الشمس .. ولم تشرق كما فعل القمر بنا أمس ؟

وصعدنا إلى ظهر المركب واستمتعنا بأجمل لحظات الرحلة وربما أجمل لحظات العمر .. وتكلمنا وضحكنا .. وتأملنا القرص الأحمر الدامى على رأى المرحوم يوسف السباعى فى « بين الاطلال .. اذكرينى .. »

ومرت اللحظات سعيدة .. مرحة .. نشيطة .. حتى عزف عازف الدونج موسيقاه الشهية يدعونا إلى الافطار .. وكنا جائعين بشدة فكانت أنغام الدونج هى أحلى الأنغام التى سمعتها فى حياتى .

ووصلنا إلى أبى سمبل وأقنا بها ثلاثة أيام وتفرجنا على المعبد .. وسجلت لحظة تسلل الشمس إلى أقدام رمسيس ونفرتارى .. وفرحت مع الفرحين .. وتركنا المهندس الشاب مدحت هناك ليواصل عمله ، وعدنا بنفس المركب : الطبيب الشاب وزوجته وأنا فتواصل اللقاء بيننا وأصبحنا منذ ذلك اليوم البعيد وحتى الآن من أقرب الأصدقاء .. أما المهندس الشاب فقد أصبح يتردد على فى القاهرة كلما جاءها فى اجازة ثم بعد أن انتهى عمله بأبى سمبل واستقر بالقاهرة وكلما جاءنى سألتنى باسم : إيه أخبار الشروق فأجيبه متحسرا : كانت أحلى الأيام .. ثم أقول لنفسى متحسرا .. ألا ليتها تعود لكن كيف تعود وقد : ولّى الشاب فما له من عودة .. وأنى المشيب فأين منه المهرب ؟

نعم أين منه المهرب إلا فى شباب القلب والأفكار .. وحب الناس .. والعطاء للآخرين .. واستمداد روح الشباب من مساعدة من يتلمسون أول الطريق .. ويشقون طريقهم بين الصخور ليقطعوا نفس المشوار .. ويكرروا نفس القصة ..

قصة الأمس واليوم وغدا ..

لهمته به بيئته الصحراوية الجافة .. فأمر بأن يقيم في قصر فخم ببغداد تحيط به  
الحدائق الغناء ويطل على ضفاف نهر دجلة ثم استدعاه بعد شهر وطلب منه أن  
ينشده .. فقال :

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى !  
في مثل هذا أمضينا سنوات التكوين في المدارس .. فلما شينا عرفنا بعد  
فوات الأوان أن دول العالم لا تتقدم بذلك وحده وإنما بساخر العصر وهو العلم  
الذي يتج الصنعة ويحقق المعجزات : وجاء ذلك متأخرا بعد أن تكونت  
شخصياتنا وترسخت طباعتنا .

وحين زرت فنلندا وهي دولة متقدمة علميا وصناعيا طلبت من الجهة الداعية  
أن تيسر لي حضور حفل كونسير لموسيقارها العقبري سييلوس .. فنظموا لي زيارة  
لمصنع لإنتاج كابلات الكهرباء العملاقة ! .

وحملتني السيارة إلى المصنع البعيد وطافوا بي أرجاءه الواسعة لأعرف الفرق  
بين أنواع الكابلات المختلفة وأشاهد خام النحاس وهو يتحول إلى سحير  
منصهر .. ثم إلى كابلات رفيعة وتخطمت ساقاي وأنا أنتقل من صالة إلى صالة  
ومن عنبر إلى عنبر ، وعلى باب المصنع ودعني مديره فشكرته وأبدت إعجابي  
بمصنعه .. ثم ركبنا السيارة عائدا إلى العاصمة . وأنا أقول لنفسي لو حضرت  
حفلا لسييلوس لازددت اقتناعا بحضارة فنلندا ! .

وفي أمريكا نظموا لي زيارة لمصانع وفروع شركة وستنجهاوز وظللت لمدة  
أسبوع أتنقل بالطائرات الصغيرة من مدينة إلى مدينة ومن ولاية إلى ولاية  
لأعرف أن الشركة تنتج الرادار ومحطات الكهرباء الضخمة وعشرات المنتجات  
المختلفة وليس فقط الثلاجات والأدوات الكهربائية كما يظن أمثالي من المضروبين  
بالأدب . ! وفي أحد فروعها أصر مديره على أن يجري أمامنا تجربة لاختبار

## وفي الحديقة .. نسيت نفسي

أحب الصناعة وأنا في مصر .. وأكرهها وأنا في الخارج ! أحبها وأنا في  
مصر ، لأنني أومن بها كطريق للتقدم وأتمتع بثمارها وأنا بعيد عن دخانها  
ومصانعها ، وأكرهها وأنا في الخارج لأنني حين أدعى لزيارة أية دولة لابد أن  
يتضمن برنامج الزيارة زيارة بعض مصانعها .. لأن الأمم تباهى بعضها بتقدمها  
في الصناعة .. وكل دولة مهما كانت ناشئة تحرص على أن تقنع زائرها بأنها دولة  
متقدمة صناعيا .. أو على الطريق إلى ذلك .. لذلك فلا بد من زيارة بعض  
المصانع .. ولابد من السفر لمسافات طويلة من العاصمة إلى أقصى المدن لزيارة  
المصانع الكبرى .. ولابد من « الشحطة » بين العنابر وسماع شرح المختصين  
لمميزاتها وأرقامها ! ولا بأس بذلك فكل أمة بصناعاتها معجبة ! .. لكن  
« البأس » الحقيقي هو في شخصيتي أنا وليس في الصناعة لأنني بكل أسف من  
« المضروبين » بالأدب والفن الذين لا يقتنعون بتقدم أمة بسبب صناعاتها  
فقط .. وإنما أيضا بإسهامها الحضاري في الفكر والأدب والفن والثقافة  
الإنسانية . ولأنني أيضا ممن جنت عليهم برامج التعليم العقيمة التي أهدرت أحلى  
سنوات العمر في دراسة أثر البيئة في شعر الشعراء .. وفي ادراك التطور الذي طرأ  
على شعر الشاعر الجلف الذي أراد أن يمدح الخليفة فقال له : أنت كالكلب في  
وفائه .. وكالتيس في صراع الخطوب ! فلما هم بأن يبطش به قيل له : اعذر  
يا مولاي فهو قادم من الصحراء حيث لا جبال ولا خيال وقد عبر عن نفسه بما



الأحمال الكهربائية الكبيرة .. وأوصلوا التيار في الهوائيات الضخمة المعلقة في سقف الصالة وأخرجونا منها وأغلقوا الباب الحديدي بيننا وبينها ونظرت إلى السقف أرقب التجربة فإذا بصوت انفجارات رهيبية بدوى في المكان فهممت بأن انبطح أرضا كما علمونا في حصص التربية العسكرية بالمدرسة الثانوية أيام زمان .. لكنني ترددت حين رأيت كل من حولي هادئين باسمين لأن هذا الصوت الفظيع مألوف لديهم فافتعلت الهدوء وأنا مضطرب .. وابتسمت وأنا مكتئب وشكرت مدير المصنع وأسهرت بالخروج ولسان حالى يقول : لو دعوتني أيضا لمشاهدة مسرحية ليوجين أونيل في برودواي لاقتنعت أكثر بتقدمهم الحضارى . !

وفي رومانيا دعيت لزيارة مصنع للسيارات .. وطاف بنا مديره من مكان إلى مكان وراقبنا عملية تجميع سيارة إلى أن تم تجميعها بالكامل وأخرجوها إلى ساحة المصنع لتجربتها وبالغ المدير في الحفاوة بنا فدعانا لركوبها وقادها بنفسه ليحربها في ساحة تجارب السيارات وهي ساحة واسعة مقسمة إلى حارات ودوائر لاختبار قوة السيارة وزوايا عجلاتها وقدرتها على المناورة وقاد السيارة في هذه الحارات الضيقة بسرعة ١٢٠ كيلو مترا ودار في دوائرها ونحن نتخبط داخلها .. ينحرف يسارا فنرتنى إلى اليمين وينحرف يميناً فنرتنى إلى اليسار .. وانتهت التجربة وغادرت السيارة وأنا دائخ خائر القوى أقاوم الغثيان وتنفس الصعداء وأنا أغادر المصنع شاكرا للجميع كرم ضيافتهم ، وفي السيارة قلت لنفسى : ولو .. سبق رواية الكاتب الرومانى قسطنطين جورجيو « الساعة الخامسة والعشرون » أهم ما يذكرني برومانيا .. وأكثر ما يعجبني من ثمار حضارتها . !

وفي جيوتى الدولة الأفريقية العربية الصغيرة .. أصروا على أن يطلعوني

أيضا على « نهضتها » الصناعية فنظموا لى زيارة لأحد المصنعين الوحيدين اللذين أقيما في جيوتى وهما مصنعان صغيران أقيما فيها منذ ٣ أعوام بمعونة سعودية أحدهما للألبان والآخر للمياه المعدنية وجاءنى مدير مصنع المياه في فندق شيراتون في الخامسة صباحا ليصطحبنى لزيارة مصنعه في بلدة اسمها تاجورة يفصل بينها وبين العاصمة خليج لا بد لعبوره من ركوب طائرة وخرجت معه من الفندق صاغرا وركبت الطائرة فإذا بها طائرة صغيرة لا تتسع إلا لـ ١٢ راكبا وحلقت الطائرة في الجو وعبرت الخليج في ٥ دقائق ثم بدأت تهبط فجأة وبشكل عمودى مخيف على الساحل الآخر ونظرت من النافذة فلم أجد مطارا ولا ممرات ورأيت الطائرة مستمرة في الهبوط .. فقرر في يقينى أنها تسقط أو تهبط اضطراريا على الأرض الجرداء .. وانخلع قلبي واغمضت عيني انتظارا للمصير المحتوم .. ثم فتحتها بعد دقيقة فوجدت الطائرة على الأرض ومدير المصنع يدعونى للتزول ..

واكتشفت أن مهبط الطائرة مجرد مساحة من الأرض غير المرصوفة بلا ممرات ولا مراقبين جويين أو أرضيين ولا أى شىء آخر واستجمعت شجاعتي ونزلت وحملتنا السيارة عبر طرق جبلية وعرة وفي هيب الشمس الحارقة إلى المصنع الصغير فإذا به خط إنتاج واحد صغير يعمل عليه ٤ أو ٥ عمال .. يبدأ بنجام البلاستيك الذى يصهر وتصنع منه الزجاجات ثم تعبأ بالماء وتقفل وتوضع عليها العلامة التجارية .. ورائع وعظيم وشكرا ثم إلى الطائرة الملعونة مرة أخرى ..

وقد ذكرنى ذلك بما جرى لى في جيوتى أيضا في حفل الاستقبال الذى أقامه لى سفيرنا السابق هناك السيد على فخري وهو شخصية ممتعة وابن أستاذ المصريين الشهير الدكتور أحمد فخري .. فلقد أقام الحفل في حديقة السفارة

ودعا له عددا كبيرا من المدعوين ونهني بدبلوماسيته الرقيقة إلى ضرورة الوقوف إلى جواره في مدخل الحديقة لاستقبال المدعوين حتى يأتوا جميعا ثم إلى ضرورة توزيع اهتمامي عليهم جميعا بعد ذلك طوال الحفل .. فأقف مع كل منهم عدة دقائق واتبادل معه الحديث في السياسة والأحوال العامة والطقس كما يفعل الدبلوماسيون في مثل هذه الحفلات والترمت بتعليقاته حرفيا وأنا أحاول أن أكون عند حسن ظنه حتى جاء سفير اليمن الشمالية وتبادلت معه كلمات الترحيب ثم جرنا الحديث إلى الشعر العربي .. فاكتشفت أنه شاعر وراوي للشعر ويحفظ الكثير جدا من الشعر العربي واكتشف هو أنني من هواة الشعر فأمسك بذراعي وانتحينا جانبا من الحديقة وقد عثر كل منا على كثر في شخص الآخر يخرج من ملل المحاملات والعبارات التقليدية في الحفلات المائلة فراح يسألني عن محفوظاتي من الشعر ويبارزني فيه ويطلبني بأن أذكر له أي بيت من الشعر العربي ليكمله ويقول لي من قائله فانقدت وراء طبيعتي ونسيت تعليقات على فخري وأصول البروتوكول .. وسرحت مع السفير اليمني في أرجاء الحديقة أقول له :

زخارف الدنيا أساس الألم .. فيكمل هو :

وطالب الدنيا نديم الندم .

هذا لعمر الحيام ! .. فأقول له : لكل شيء إذا ما تم نقصان .. فيكمل :

فلا يقر بطيب العيش إنسان ..

هذا للشاعر الأندلسي الرندي ! ثم أتنبه على ذراع السفير على فخري يشدني ليعرفني بمستشار السفارة الفرنسية وما أكاد أتبادل معه بعض الكلمات المجاملة .. حتى يناديني السفير اليمني ويقول لي : ماذا عندك أيضا .. ! فأقول له : الدين يسر والخلافة بيعة .. فيكمل : والأمر شوري والحقوق قضاء ! ثم

يقول هذا اعجاز من أمير الشعراء أحمد شوقي الذي لخص الشريعة الإسلامية كلها في بيت شعر واحد من ٨ كلمات ! .. وهكذا ظللنا طوال السهرة نتطرح الشعر . وانصرف المدعوون بغير أن أشعر . ولم أتنبه إلا والحديقة خالية من الجميع ما عدا السفير اليمني والسفير المصري وموظفي السفارة وقد جلس على فخري على كرسي بجانب البوفيه يستريح من عناء الوقوف لمدة ساعتين وهو ينظر إلى في عتاب باسم ثم يقول لي : فضحتني ! فأنفجر ضاحكا .. وتنتقل العدوى إليه ويضحك . وضحك معه لأنني انتقم أخيرا من برامج الدعوات التي تسجنني في غير طبيعتي ولا تتركني أبدا على سجيتي .. وانتهت المناسبة وأصبحت من ذكرياتي التي أتذكرها دائما كلما وجدت نفسي سجيئا داخل عنبر من عنابر المصانع التي لا بد أن تكون في برنامج زيارتي فهل عرفت ماذا أعني عندما قلت لك إنني أومن بالصناعة وأنا في مصر وأكرها من قلبي إذا دعيت لزيارة أية دولة في الخارج ... نعم تحيا الصناعة ولكن يحيا الأدب والفكر والموسيقى أيضا . ويحيا التعليم السليم الذي لا يسجن الشباب في الفكر النظري الذي يخرجهم إلى الحياة كالجندي الأعزل من السلاح في عصر العلم وأيضا يحيا التعليم الذي لا يسجنهم في إطار العلم التجريبي وحده فيخرجهم إلى الحياة محرومين من تذوق ثمار الفكر الإنساني .. فيفقدون أنفسهم ويتحولون إلى آلات صماء .. لكن هذا حديث آخر ! ! .

## شاهدت الأمر

أمضيت في روما يومين ، أنفقت معظمها واقفا أمام تمثال أمير الشعراء أحمد شوقي في حدائق بورجيزي ! .  
فبالرغم من أني زرت إيطاليا مرتين قبل ذلك فلم أكن قد رأيت روما ولا « شاهدت الأمر » فيها ! .

و« الأمر » هنا إشارة إلى بيت الشعر الجميل الذي اختاروه بعناية من أشعار أمير الشعراء ليسجل على قاعدة تمثاله هناك ، ويقول :  
قف بروما وشاهد الأمر واشهد أن للملك خالقا سبحانه  
ولم أكن في حاجة لأن أقف بروما ، لكي أشهد أن للملك خالقا  
سبحانه ، لكنني بالتأكيد في حاجة إلى أن أشاهد « الأمر » نفسه الذي يحیی في الأذهان هذه الحقيقة البديهة .

وهكذا انطلقت في الشوارع مسلحا بخريطة للمدينة ، انتقل من شارع إلى شارع ومن ميدان إلى ميدان ومن متحف إلى متحف ، وبين حين وآخر أجدني بالقرب من حدائق بورجيزي التي تقع فوق ربوة عالية فأصعد إليها لأتوقف لحظات أخرى أمام تمثال أحمد شوقي : أنظر إليه وإلى التعبير الوديع الحالم في عينيه وإلى الوردية التي يمسكها بإحدى يديه ، وأعيد قراءة بيت الشعر ، واتفكر في معانيه ، وأحاول أن أتذكر من أي قصيدة هو فلا تسعفى<sup>(١)</sup> الذاكرة .

(١) رجعت للشوقيات فوجدته مطلع قصيدة بعنوان « روما » بالجزء الأول منها ص ٢٤٨ .

إنه تمثال ضخم جميل نحته المثال الراحل جمال السجيني ، وأقيم في موقعه في أبريل ١٩٦٢ ليكون أول وآخر تمثال لمصرى في أوروبا الآن ولكن قاعدة التمثال أغفلت بكل أسف هذه الحقيقة الأساسية فكتبوا عليها بالعربية والاطالية : الشاعر العربى أحمد شوقى ، ورغم اعترازى بعروبتى ، فلقد كنت أتمنى لو لم يغفلوا تسجيل مصريته إلى جانب عروبتة على قاعدة تمثاله . والوقوف أمام تماثيل الأدباء والمفكرين عادة قديمة عندى ، ولا أعرف لماذا تجذبني تماثيلهم وتشدني إليها فأتوقف أمامها طويلا كأنى أقف أمام صديق لم أره منذ زمن ؟ ! .

وحين كنت في لندن قبل زيارتى لروما ، تفرغت يوما كاملا للذهاب إلى مدينة ستراتفورد مسقط رأس أديب الانجليزية الأشهر ولیم شکسپیر ، وانحشرت في سيارة صديق مقيم في لندن لمدة ساعتين ، لكي أزور بيته الذى جعلوا منه بذكاء حضارى وثقافى عظيم متحفا يؤمه السياح ، ويرون فيه غرفة نومه وغرفة معيشته ونماذج من مخطوطاته والمائدة الخشبية التى أبدع فوقها روائعه الأولى قبل أن ينتقل للإقامة في لندن ، ولأرى أيضا تمثاله الكبير المقام في مدخل المدينة ومن حوله تماثيل بعض شخصياته المسرحية المعروفة كليدى ماكبث وهاملت وغيرهما .

وأدهشنى أن هذا التمثال قد أقيم في موقعه منذ مائة عام بالضبط ، وأن من أقامته على نفقتها سيدة بريطانية محبة للأدب وعاشقة لشكسبير ، وأنها أقامته بمناسبة الذكرى السنوية الخامسة لوفاة زوجها اللورد المحب للآداب والفنون والذى كان شكسبير أديبه المفضل ! .

يا إلهى .. إن التقدم لا يأتي من فراغ ولا ينبع من العدم ، فهناك يتطوع الأثرياء لتكريم الأدباء والمفكرين العظام ، وهنا يتطوع السفهاء برش النقود

فوق رؤوس الراقصات والمطربين من أمثال كتكوت وفرفور !.

وهناك يعتبرون مساكن الأدباء والمفكرين ومتعلقاتهم الشخصية كنوزا يحفظونها للتاريخ ويعرضونها كثرات يفخرون به أمام العالم ، وهنا يتنازع الورثة على اقتسام « ملابس » المفكرين وممتلكاتهم الضئيلة قبل أن تبرد الدماء في جثثان الراحلين منهم !.

وأمام تمثال شكسبير الشامخ في موقعه وقفت طويلا ، وأمام تمثال صديقي المعذب هاملت المقام حول القاعدة وقفت أطول وأطول .

إنه صديق قديم بيني وبينه محاورات داخلية .. وتأملات قديمة !.

لقد اختاروا له مشهدا عميق الدلالة من مشاهد المسرحية التي تحمل اسمه ، هو : مشهده وهو يمسك بجمجمة « يورك » مضحك الملك الذي طالما أضحكه في طفولته وصباه يتأملها ويقول لصاحبها : أين مزاحك الآن وأناشيدك وأغنياتك !.

ولأمر مالا أعرف سببه لاتستهويني تماثيل الساسة وقادة الحروب بقدر ما تستهويني تماثيل الأدباء والعلماء والمفكرين ، وأتذكر غالبا في كل مرة أقف فيها أمام تمثال لأحدهم كلمة الفيلسوف الألماني شوبنهاور التي قالها وهو مشغول بتخليد ذكرى الشاعر الألماني العظيم « جوته » : إن العلماء والفلاسفة ينبغي أن تقام لهم تماثيل نصفية فقط لأنهم يخدمون العالم برءوسهم ، أما الساسة والقواد فينبغي أن تقام لهم تماثيل كاملة ، لأنهم يخدمون العالم بكيانهم كله !.

ولم يسمع له أحد لحسن الحظ ، وإلا لحرمتا من رؤية التماثيل الكاملة لشكسبير وجوته وفولتير وأحمد شوقي وغيرهم ، وإن كان هو قد نفذ فكرته في حياته الخاصة فكان يضع على مكتبه تماثيل نصفين أحدهما للفيلسوف

« كانت » والآخر لـ « بوذا » ويمضي الساعات أحيانا صامتا يحدق في تمثال بوذا !.

ولا أنسى حين تركت تماثيل الساسة والقادة في متحف مدام توسو بلندن منذ عشر سنوات ، وتسمرت أمام تمثال الأديب والمفكر الفرنسي فولتير القصير الماكر الذي أشيع العالم بسخريته حتى ضاق لي مرافقي وجذبني جذبا من أمامه .

وقد أسعدني الحظ خلال جولاتي في شوارع روما باكتشاف متحف صغير لتماثيل الشمع اسمه متحف غاريبالدي ، فدخلته على الفور ، وطففت بتأثله سريعا ، حتى وجدت بغيتي في تمثال الكاتب الفرنسي الكبير أونوريه بلزاك بملابسه التقليدية الحمراء التي كان يرتديها حين يتفرغ للكتابة ، والذي يقلده صديقي الأديب أحمد بهجت بطريقته الخاصة عندما يتهيأ للكتابة في الشتاء فيرتدى القفطان المغربي ويجلس إلى مكتبه بالساعات لينسج مقالاته ومؤلفاته ، أما في الصيف فهو لا يقلد بلزاك ، ويفضل أن يكتب بملابس طرزان !.

وأعود إلى جولاتي في مدينة روما ، وأكتشف أن « الأمر » - الذي ربما عناه شوقي - هو أن المدينة متحف كبير ، في كل ميدان من ميادينها أثر قديم أو قلعة من آثار الماضي أو كنيسة تاريخية تتحدى الزمن بمعمارها الهندسي الفريد أو بوابة من بوابات روما القديمة حافظوا عليها ورمموها لتكون شاهدا للأجيال على المجد القديم ! « إذ الناس ناس .. والزمان زمان ! » كما يقول الشاعر !

لكن الحياة لا تتوقف يا صديقي ، والماضي يصب دائما في الحاضر والحاضر يقود للمستقبل ، ومن قديم الزمان والناس يتوجعون على الماضي الذي كان ، لأن اليوم الذي يمضي يخضع من فاتورة العمر ، ونهر الحياة يمضي في طريقه دائما حاملا الجديد وتاركا القديم وديعة في ذمة التاريخ ، لكي نراها في

المتاحف ونشاهدها في الميادين ، ونتذكر ، ونأمل حكمة الحياة ، ونشهد مع شوق ومع العقلاء في كل زمان ومكان ، بأن للملك خالقاً سبحانه .. للملك خالقاً سبحانه .

## النقط .. بين الحروف

ذات يوم بعيد دخلت مبنى الأهرام القديم في باب اللوق ، فانتفض موظف الاستعلامات واقفاً ، ثم مال على أذني لي يقول لي باهتمام شديد : « الأستاذ ... » يطلبك فشكرته ، ودخلت المبنى وأنا أفكر : ترى ماذا يريد الأستاذ مني ، وأنا محرر شاب في الأهرام العتيق الذي يضم جهابذة الكتاب والصحفيين ؟.

وكنيت قد انتهيت يومها من نشر سلسلة من التحقيقات الصحفية عن ظاهرة تكررت أيامها ، وهي إقدام عدد من طلبة الثانوية العامة على محاولة الانتحار خلال امتحان الثانوية العامة ، بسبب صعوبة الأسئلة ، أو بسبب السباق العصيب الذي يدخله طلبة الثانوية العامة كل سنة للمرور من عنق الزجاجة إلى الجامعة ، وكان عنوان هذه السلسلة هو « لماذا ينتحرون » ؟ . وفي طريقى إلى مكتبه ساءلت نفسى : هل أخطأت في بعض ما ناقشته خلال هذه التحقيقات ، وهل تجاوزت الموضوعية فيما .. كتبت ؟ ثم دخلت إلى مكتبه متوجساً ، ففاجأني بابتسامه عريضة ثم قال لى :

لقد قرأت لك تحقيقاتك الثلاثة عن انتحار طلبة الثانوية وأعجبت بها ، وأكثر ما أعجبنى فيها هو أنها كتبت بإحساس طالب في الثانوية العامة يواجه هذه المحنة ، وبمأساوية تتناسب مع جو الموضوع ، حتى أنها كانت في بعض

أجزائها تستدر الدموع ، وهذه الطريقة تصلح لهذا النوع من التحقيقات ، لكنها لا تصلح لأنواع أخرى منها قد تحتاج إلى أن يتناولها الكاتب من خارج دائرة مشاعره وأحاسيسه الشخصية ، وتوقف « الأستاذ » ليشعل سيجارة ثم قال : شيء واحد لم يعجبني في هذه التحقيقات هو إسرافك في استخدام النقط بين الكلمات والسطور .

وأنا أفسر ذلك بسبب من ثلاثة أسباب :

إما تأثرك بقصص احسان عبد القدوس الأولى التي كان يصبر على أن تتخللها سطور من النقط تتبع للقارئ تخيل أشياء عديدة ! .

وإما تأثرك بمقالات فكرى أباطة التي يسرف في استخدام النقط فيها بداع وبدون داع في كل سطر وبين كل عدة كلمات .

ثم سكت قليلا فسأله : والسبب الثالث ؟ فضحك ضحكته القصيرة قبل أن يقول أما السبب الثالث فقد يكون تأثرك بأسلوب كتابة الخطابات الغرامية التي تنتشر فيها عادة النقط بين الكلمات ! .

لذلك أريدك أن تراعى عدم الإسراف في استخدام النقط بين الكلمات أثناء الكتابة ، وألا تستخدمها عشوائيا ، بل تضعها حين تريد أن تعبر عن شيء تعنيه وتقصده ، فالنقطتان مثلا حين يضعها الكاتب قرب نهاية الجملة تعنيان أنها تمهدان لمعنى مفاجئ ومغاير لسياق المعنى السائد في أول الجملة ، والنقطتان حين يضعها الكاتب في بداية الجملة يعطيان الإحساس بالتواصل والاستمرار للمعنى في السطور السابقة ، وهكذا ، ولا بد أن تعود نفسك على أن تكبح جماح قلمك الراغب في أن ينثر النقاط بين الكلمات بدافع العادة أو بدافع الرغبة في الزخرفة ، فالنقطة أداة من أدوات التعبير ولا بد أن تستخدم في موضعها ، وكذلك علامة التعجب التي يسرف البعض في استخدامها بغير

وعى أيضا تمثل رأيا للكاتب ولا بد أن تستخدم بوعى من الكاتب لما يفعله ، وليس عشوائيا كما يفعل البعض .

وواصل الأستاذ كلامه : لقد كان الأستاذ التابعى - هكذا كان ينطق اسمه دائما - يتصل بالجريدة من البيت أحيانا ل يطلب رفع نقطتين وضعها بين ثنايا مقاله . أو إضافة نقطتين . أو حذف علامة تعجب أو إضافة علامة تعجب في موضع آخر . ويعتنى كثيرا بموضع النقاط المتناثرة في مقاله وموضع علامات التعجب . إحساسا منه بأهمية هذه الأدوات في الكتابة والتعبير . فتذكر ذلك دائما عند كتابة تحقيقاتك . وانتهى اللقاء وخرجت سعيدا من مكتبه . ومضت سنوات تقترب من العشرين على هذا الحوار القصير . وبالرغم من ذلك فلم أنسه أبدا . بلى لعل لم أمسك القلم مرة لأكتب بغير أن أتذكر هذا الحوار . فأتنبه لقلمي وأكبح جماحه وارده إلى العقل كلما استجاب لترواته القديمة . وأراد أن ينثر النقاط بين الكلمات .

كذلك لم أنس أبدا المعنى الأكبر الذى خرجت به من هذا الحوار ، وهو أن الكتابة ليست هوا ولا عبثا وإنما عمل جاد مسئول ، كل نقطة فيه لها دور ودلالة ، فإذا كان الكاتب مطالبا بأن يتنبه لأهمية أداة ثانوية كالنقطة وعلامة التعجب ، فكيف يكون اهتمامه بالرأى الذى يعبر عنه والموقف الذى يتخذه والفكر الذى يستلهمه في كتاباته ، بل كيف يكون حرصه على كرامة هذا القلم نفسه فلا يهينه ، ولا يدنسه . إنها « صناعة » كباقي الصناعات الأخرى تتطلب الاهتمام الجاد بكل أدواتها وإلا انخفض مستوى الانتاج ! ..

وفولتير كان يقول إن صناعى هي أن أقول ما أعتقد ، وصناعة كل كاتب هي أن يقول ما يعتقد وما يؤمن به سواء اتفقنا معه أم اختلفنا ، وما ينطبق على الكاتب ينطبق على كل إنسان في كل مجال من مجالات الحياة ، فالمغزى

واحد .. وهو الجدية واحترام العمل والاهتمام بأدواته سواء أكانت قأسا أم مطرقة أم ماكينة أم قلمًا ، أو هذا على الأقل هو ما فهمته من هذا الحوار القديم ، وحاولت الالتزام به طوال رحلتي الشاقة في الصحافة ..

## صَبَاحٌ سَعِيدٌ

كان أحسن الأزمان .. وكان أيضا أسوأ الأزمان ! ..  
هكذا قال شارلز ديكنز في بداية « قصة مدينتين » وهو يصف أيام الثورة الفرنسية التي جرت خلالها أحداث روايته الشهيرة وهكذا ينبغي أن يكتب أيضا كل من يريد أن يروي قصة صديقي عبد المجيد ، مع أن قصته لم تحدث في زمن الثورة الفرنسية وإنما منذ عشرين عاما فقط .  
فلقد قامت ثورة يوليو وهو شاب يحاول أن يعبر عن نفسه من خلال انتمائه لجماعة دينية سياسية ثم حدث الصدام الأول بين الثورة والجماعة فاعتقل عبد المجيد لعدة أيام خرج بعدها فوجد باب العمل السياسي مسدودا أمامه ، ولم يكن ذا طبيعة تستريح للعمل السري فأنتهى حلم السياسة من حياته وتفرغ لشؤنه الخاصة وتقبل الأمر بواقعية مؤمنا بأن لكل عصر رجاله ، وبأن ما جرى له قد جرى من قبل لغيره وأبرزهم في محيط علاقاته هو نائب مدينته الصغيرة بالأقاليم « حامد بيه » .

وكان حامد بيه هو نائب الحزب الشعبي القديم عن المدينة في أكثر من مجلس نيابي ثم قامت الثورة وهوت مطارقتها على رجال الأحزاب القديمة .. فتغيرت الدنيا في سنوات قليلة وفقد حامد بيه نفوذه السياسي لكنه لم يفقد الأمل في عودة المجد القديم ذات يوم فاحتفظ بعلاقاته الطيبة مع كثيرين من

أبناء المدينة الصغيرة .. ورحب دائما بأن يستقبل في فيلته الصغيرة بالقاهرة من يأتيه منهم طالبا مساعدته في حل بعض المشاكل الصغيرة لدى الأجهزة الحكومية .. فإن كان النفوذ القديم قد راح فإزالت له بقايا عن طريق بعض الصلات العائلية برجال الحكومة تستطيع أحيانا أن تسوى بعض المشاكل الصغيرة فيعود أبناء الدائرة من زيارته راضين شاكرين .

ومرت سنوات لم يلتق خلالها صديق عبد المجيد بحامد بك سوى مرات قليلة في مناسبات معينة حين يرحل راحل من أسرة النائب القديم فيجىء إلى المدينة الصغيرة لتقبل العزاء .. أو حين يرحل راحل من أبناء العائلات الكبيرة بالمدينة فيجىء هو لتقديم واجب العزاء .

وخيم الملل على الحياة العامة والخاصة على السواء لعدة سنوات لكن صداما جديدا يقع بين الثورة والاخوان .. فينشط زوار الفجر لاعتقال أعضاء الجماعة مرة أخرى .. ويتوقع عبد المجيد السجن رغم مرور عشر سنوات على آخر نشاط سياسى له ولا تكذب الأيام ظنونه .. فيأتى الزوار ويصطحبونه إلى مكان مجهول وتفزع أسرته فزعا شديدا ويتجلى العجز والحيرة بأوسع المعانى . ووسط ظلام الحيرة يلمع أمل ضعيف .. حامد بيه رجل الأزمت الذى طالما لجأوا إليه فى الزمن الماضى ويتحمسون للسفر إليه فى القاهرة .. فيستقبلهم فى البهو القديم الذى كان قبلة أصحاب الحاجات فى الأيام السعيدة ويقول قائلهم أمامه : حامد بك .. أنت رجلنا دائما فى الملأ وعبد المجيد من أبناء دائرتك .. وهو كما تعرف لم يرتكب جرما ولم يشارك فى مؤامرة .. والأمل كل الأمل فى أن تستشفع له لدى الحكومة .

ويسمع حامد بك الرجاء فى وقار ويفكر ماذا يستطيع أن يصنع فى هذه « الوكسة » وهو يعرف أن الدنيا لم تعد هى الدنيا .. وأنه فى هذه المسائل

الشائكة بالذات لا يسمع أحد لأحد خاصة إذا كان من رجال العهد القديم .. ثم يستأذن منهم ويتحى جانبا من الصالون مع التليفون ويدير أرقاما .. ويتحدث بصوت غير مسموع طويلا .. ثم يضع السماعة ويعود إليهم منفرج الأسارير ليبلغهم أنه حادث « المسئولين » وبحوثا فى الأوراق وهو معهم على التليفون فلم يجدوا شيئا يدين قريبهم وأكدوا له أنه قد اعتقل من باب الاحتياط فقط فى بداية الحملة وسوف يفرج عنه بعد أن تحدد موقفه فعلا فى أقرب وقت .

وانصرف أفراد الأسرة شاكرين وفى أول خطاب سمح لهم بإرساله إلى قريبهم بالسجن زفوا إليه البشرى وكالغريق الذى يتعلق بالقشة تلقى الرسالة فى سجنه بفرحة كبيرة وتجدد أمله فى العودة للحياة من جديد . لكن الأيام مضت بطيئة ثقيلة بلا أدنى أمل بقرب زوال الغمة ، ومن خارج الأسوار ترامت إليه أنباء عجيبة حركت الملل الراكد فى حياة السجن فلقد توفى زعيم الحزب القديم بعد أعوام طويلة من اعتزال الحياة السياسية فإذا برجال الحزب يتوافدون من كل صوب على القاهرة ليشيعوا جثمانه فى جنازة شعبية كبيرة ويرددون هتافات الزمن القديم فنفرع الأجهزة وتتصور وجود « مؤامرة » وراء هذا الحدث فتنتقل لاعتقال رجال الحزب وتستقبل السجون وفودا جديدة منهم . ثم تهدأ الأحوال بعد ذلك .

ويراجع الاهتمام الذى أثاره الحدث الجديد وتعود الحياة فى السجن إلى كآبتها المعتادة .. ويقرب الشتاء ببرده القارس .

ويصحو عبد المجيد ذات صباح قبل موعد طابور الحمام بساعة فتضى الدقائق فى وحدته كأنها دهور .. ثم يقرب الحارس أخيرا ويسمع صوت المفتاح يدور فى القفل .. فينهض متثاقلا ويحمل القوطة على ذراعه ويخرج إلى



الردهة ثم إلى الفناء الصغير الذى يقع الحمام فى نهايته وقبل أن يصل إليه يرى نزىلا يغادره بالبيجامة والشبشب والقوطة حول رقبته .. فيشعر عبد المجيد بأنه يعرفه ويبدل جهدا كبيرا ليتذكر أين رآه من قبل ثم يشتعل اهتمامه فجأة ويهتف باحترام شديد : حامد بيه ! صباح سعيد يا حامد بيه .. فيتوقف الرجل وينظر إليه متسائلا ثم تنجده ذاكرته القوية فيصافحه ويرد تحيته بتواضع العظماء ويتبادلان الحديث للحظات تحت أنظار الحارسين المتأففة ، ويمد حامد بيه يده ليصافح عبد المجيد مودعا ويهم بالتحرك ثم يتذكر شيئا هاما فيشد ظهره إلى الوراء كما اعتاد أن يفعل حين يتحدث فى جلائل الأمور ويقول له فجأة : اطمئن يا عبد المجيد .. لقد كلمت المسئولين بشأنك .. ووعدوني بالإفراج عنك خلال وقت قصير .. فلا تقلق . فانحنى الآخر على يده يشد عليها بعرفان شديد .. ثم كرر عبارات الشكر وهو يرفع يده اليمنى إلى جبهته محيا وشاكرا .. وانصرف حامد بك مع حارسه بخطواته الوقورة وغبد المجيد فى مكانه ينظر إليه وهو يطرقع بالشبشب الجلودى على بلاط الفناء الكابى اللون .

ثم تنبه فجأة إلى غرابة الموقف فابتسم .. وكادت تفلت منه ضحكة كتمها بجهد شديد ثم ألحت عليه ضحكة أخرى فشد ملامح وجهه لينمعه من الانطلاق فاهتز جسمه بدغدغاتها .. ونفرت عروقه وتلاحقت أنفاسه وهو يرقب حامد بك يتوارى فى الممر القريب فاطمأن إلى أنه لن يسمعه .. وأرخص لنفسه الزمام .. فانطلق ضحك الدنيا كله منه .. وأحس بهجة غريبة لم يحس بها منذ زمن طويل وتلاحقت ضحكاته قوية صافية حتى أفرغ كل مخزونه منها واستراح .

لكنه أبدا .. أبدا لم يفقد احترامه القديم لحامد بك ! .

## مستقبلى رائى

هل أنت خائف من المستقبل ؟ ... بعض الشيء وأنا كذلك لكنى أفكر ! .

ومادمت أفكر فلا بد أن أسلم بأن المستقبل غيب ... والغيب لا يعلمه إلا الله وليس من الحكمة أن أفسد حاضرى لحساب المستقبل ... أو لحساب الماضى فلا بكائى على الماضى سوف يغير من واقعى ولا خوفى من المستقبل سوف يغيره أو يخط فيه خطأ جديدا .

والخوف من المستقبل داء قديم عرفته البشرية منذ زمان طويل ... فالإنسان مهموم دائما بمستقبله كأنما سيعيش أبدا ... وهو فى سن الصبا مهموم بمرحلة الشباب وفى سن الشباب مهموم بمرحلة الرجولة وفى سن الرجولة يخاف من الشيخوخة وفى سن الشيخوخة يخاف من الموت مع أنه «حاضر» دائما فى كل مراحل العمر ويمكن أن يهبط من السماء فى أية لحظة .

والاحساس المبالغ فيه بالمستقبل احساس مريض معروف يفقد معه الإنسان سلامة النفسى ويحس دائما بالقلق والتوجس . والفقيه الدستورى العظيم دكتور عبد الرازق السنهورى كتب مرة يقول : ماتعت لشيء أكثر من تعبى عندما أفكر فى المستقبل ! .

والملك الحسن ملك المغرب سئل مرة فى بداية توليه الملك فى بلاده وهو

في سن الشباب عن إحساسه بالمستقبل فقال كلمته الشهيرة التي أصبحت مثلاً : « مستقبلي ورائي » يقصد أن مستقبله قد تحدد بماضيه وبالتالي فهو وراءه وليس أمامه ! .

وبعض الشباب في بلادنا يرون معه أن مستقبلهم وراءهم وليس أمامهم ... لأن صعوبات الحاضر قد قللت فرصهم لتحقيق أحلامهم في المستقبل ... فالماضي قد جنى على الحاضر ... والحاضر سوف يجنى على المستقبل ... وسوف يغتال الأحلام ويقتل الطموحات . وهذا الإحساس قد يكون له ما يبرره في بعض الوجوه ... لكنه في إجماله ليس صحيحاً ... لأن إرادة الإنسان أقوى دائماً من كل الصعوبات ... ولأن كل إنسان يستطيع أن يسعى إلى تحقيق أهدافه ... وأن يبذل الجهد والعرق والدموع من أجلها ... فإن نالها رضى عن نفسه وأن قصرت الإمكانيات عن بلوغها فيكفيه شرف المحاولة لكي يرضى أيضاً لأنه لم يقصر في حق نفسه ولأنه قد « حاول » ... وسوف يحاول مرة أخرى مؤمناً بأن على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح وبأن :

مساكل ما يبتغى المرء يدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن وما أكثر ما أنت به الرياح مما لا تشتهي السفن ... ومع ذلك فقد حاولت السفن وغالبت وصمدت حتى اجتازت العواصف واستقرت في مسارها فوق الحياة الهادئة الآمنة .

وفي كل الأحوال ، علينا أن نرضى دائماً بما حققناه ، وبما اخترناه لأنفسنا ، واختارته لنا الأقدار فالتوفيق في النهاية من عند الله ... وللحظ دور غير منكور في حياة البشر لكنه ليس الدور الوحيد أو الدور الأساسي . والملكة الكسندرا إحدى ملكات أوروبا في العصور الوسطى كانت تدعو لابنها قائلة :

« رب اجعل له حظاً يستخدم به أصحاب العقول ولا تجعل له عقلاً يخدم به أصحاب الحظوظ ! » ورغم اعترافي بدور الحظ في حياة البشر فإنني لا أتفق تماماً مع مضمون هذا الدعاء العجيب لأن الحظ وحده لا يكفي ، ولأنه إذا أفاد في بعض الحالات فلن يفيد في كل اختبارات الحياة ... فلا بد دائماً من العقل حتى ولو خدمنا به أصحاب الحظوظ في بعض الأحيان ولا بد من الاستعداد الكافي لمواجهة معركة الحياة ولا بد من الإرادة والكفاح والصبر لأن كل قصص النجاح التي تستهويننا هي غالباً قصص هذا المزيج العجيب من العقل « أي العلم » والحظ والكفاح والإرادة والصبر والأمل والقدرة دائماً على تكرار المحاولة . وهو مزيج مر الطعم كمزيج الحديد والزرنيخ الذي تقدمه المستشفيات المجانية لمرضاها لكن مفعوله هنا أكيد .

وقبل ميلاد المسيح عليه السلام بخمسمائة سنة قال الاغريق : إن أفضل الأشياء هي أصعبها منالاً ! .

وما زالت هذه الحكمة صحيحة حتى الآن .... فما يتحقق بغير تجرع هذا المزيج المر لا نقدره غالباً حق قدره ولا نستمتع به ... وغالباً ما نفقده بنفس السهولة التي جاءنا بها لأن ما يأتي سهلاً يضيع سهلاً كما يقول المثل الإنجليزي .. أما ما بذلنا من أجله العرق والدموع ... فإننا نتشبث به ونحافظ عليه ونبنى فوقه لأننا نعرف جيداً كم شقينا لكي نناله ... وكم سهرنا من أجله الليالي .

وفي كل مراحل العمر .. على الإنسان دائماً أن يحاول تحويل خسائره الشخصية إلى مكاسب فيحاول دائماً أن يبدأ من حيث فشل مؤمناً بأن قطرة الماء تثقب الصخر وأن « المستقبل » الذي يسعى إليه هو مشروع سنوات طويلة وليس مشروع أسابيع أو شهور ، وأن ما نعانیه من صعوبات أو آلام لن تستمر

إلى الأبد ، وحتى لو استمرت فلقد حولها غيرنا من خسائر إلى مكاسب فلماذا  
لأنحاول مثلهم ؟ .

## عرب النظرات

لماذا أتذكر هذه القصة القديمة الآن ؟ .

كنا في منتصف الستينيات مرحلة استشعار الدور التاريخي وأحلام العظمة  
ثم تحدث الرئيس الراحل عبد الناصر في إحدى خطبه عن مشاكل الإدارة في  
بلادنا فتعجب من أننا قد نجحنا في إدارة قناة السويس بعد التأميم وفشلنا في  
إدارة مستشفى كبير كمستشفى قصر العيني ! فبدأت في إعداد سلسلة تحقيقات  
صحفية للأهرام عن مشاكل مستشفى قصر العيني ، وكانت الخطوة الأولى في  
التحقيق هي مقابلة وكيل جامعة القاهرة الذي يتبعه المستشفى وكان أستاذا  
جامعيا معروفا ، فاستقبلني الرجل بترحيب شديد بالرغم من أن جو التحقيق  
يوحى من البداية بأنه سيكون هجوما وسيركز على سوء الخدمة ومشاكل  
الإدارة وبدأت المناقشة معه فراح يناقشني بهدوء وموضوعية ويشاركني الرأي  
في سوء حال المستشفى وي طرح آراءه في علاج مساوئه ثم يودعني متمنيا لي  
التوفيق في مهمتي فأشكره وانصرف . وجاءت الخطوة الثانية وكانت مقابلة  
مدير عام المستشفيات وكان للأسف جنرا لا سابقاً من أهل الثقة الذين وضعوا  
في المناصب الكبيرة للثقة في أشخاصهم بغض النظر عن كفاءتهم فجروا علينا  
الكثير من المصائب وذهبت لمقابلته فأحسست منذ اللحظة الأولى التي دخلت  
فيها مكتب سكرتيه أني قد انتقلت من جو إلى جو آخر .. فسكرتيه متوتر  
ومشدود وخائف بلا سبب مفهوم والموظفون يدخلون مضطربين إلى مكتب

إن بعض المؤرخين يعتقدون أن الصعاب الشخصية التي واجهت بعض  
العابرة والمشاهير هي السبب الأساسي في نبوغهم وفي شحذ إرادتهم لتحقيق  
ما حققوه ويرون أنه لو لم يولد الفيلسوف الفرنسي ديكارت مريضاً عليلاً  
مهتداً بالإصابة بمرض السل الذي ماتت به أمه لما سمح له مدرسه بالبقاء  
فترات طويلة في الفراش والذهاب متأخراً إلى الفصل ولما قضى ساعاته في  
الفراش متأملاً ... ومفكراً .... وقارئاً ... مما أهله فيما بعد لوضع فلسفته التي  
يعتبرونه بها أبا الفلسفة الحديثة .

ويرى بعض النقاد أنه من المحتمل جداً أنه لو لم يكن الشاعر الإنجليزي  
ميلتون أعمى لما كتب قصائده ... وأنه لو لم يكن الموسيقار العبقري بيتهوفن  
أصم لما ألف روائعه الموسيقية وأنه لو لم يكن الكاتبان الروسيان العظيمان  
تولستوى ودستوفسكى والموسيقار تشايكوفسكى معذبين في حياتهم الخاصة لما  
ألفوا روائعهم الخالدة .... أما العالم الإنجليزي تشارلس داروين صاحب  
نظرية التطور ، فقد كتب هو نفسه يقول : لو لم أكن مريضاً طريح الفراش  
لما أنجزت ما أنجزت من أعمال ! » .

ونفس الشيء يمكن أن نقوله عن طه حسين والعقاد وغيرهما من العالقة  
الذين تحدوا ظروفهم الشخصية أو الاجتماعية .... وشربوا هذا المزيج العجيب  
الذي ينبغى أن نوطن أنفسنا على أن نتجرعه حتى الثمالة ثم يحق لنا بعد ذلك  
أن نتساءل بقلب يؤمن بالله ... ويطمع في رحمته ... ويثق في عدالته ...  
ويحقق دائماً بالأمل :

..... ترى .... ماذا تحبى لنا أيها الغد ؟ ! .

المدير ثم يخرجون بعد دقائق ووجوههم حمرة عرقاً : ثم دعاني السكرتير للدخول فدخلت غرفة مكتب واسعة يجلس في نهايتها رجل طويل ممصوص يتصنع الوقار والهيبة فاستقبلني بتحفظ مقصود وقال لي ببرود رغم معرفته بهدف الزيارة : أفندم ؟ .

فابتلعت تحفظه وجفائه وقلت له في كلمات مختصرة إنني أعيد تحقيقاً عن المستشفى وأحتاج إلى بعض البيانات والأرقام : فكان جوابه نظرة باردة وقحة استمرت حوالي دقيقة ترجمتها الحرفية هكذا : كيف تجرؤ على التفكير في كتابة تحقيق ينتقد المستشفيات التي أديرها ؟ ألم تر كيف يرتجف الموظفون الكبار أمامي ! ألا تعلم أنني من أهل الثقة .. صحيح أن الرئيس ولسوء حظي قد أشار إلى مشاكل قصر العينين .. لكنه الرئيس ومن حقه أن يقول ما يشاء وعلينا السمع والطاعة ونحن « زيتنا في دقيقتنا » .. فما شأنك أنت أيها المدني الغريب ؟ .

بعد هذا الحوار الصامت نطق أخيراً وقال : تفضل فسألته أول سؤال محاذراً أن تبدو من ورائه أية نية هجومية . فكان الجواب مرة أخرى : نظرة أخرى أكثر وقاحة ترجمتها الحرفية هكذا : آه يا أولاد الأفاعي .. والله الذي لا إله سواه .. لولا احتمال ضعيف أن يكون هذا التحقيق مطلوباً باتفاق ضمنى بين سيادة الرئيس وبين خله الوفي الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير « الأهرام » في ذلك الوقت لكان جوابي عليك هو « شلوت » يطيح بك خارج المكتب ، لكن لا بد مما ليس منه بد ولا بد أن أخضع لحكم الزمن وأكون « ديمقراطياً » معك وأجيب عن أسئلتك .

وبعد هذه الجملة الصامتة البليغة انحنى على أوراقه وردد بعض الأرقام باقتضاب : ثم عاد يركز نظراته على .

فسألته سؤالاً آخر فعاد يسدد إلى سهامه النارية لمدة دقيقة كاملة بما معناه هذه المرة : يا بن .. ! ألم تخف مني بعد ! لو كان الأمر بيدي لسلختك حياً .. لكن ما باليد حيلة .. إذن هذا هو الجواب ثم يقرأ بعض البيانات . ومضى الحديث هكذا : أسئلة بالكلمات وأجوبة بالنظرات الكارهة الصاعقة حتى أحس أني قد « زودتها » بعض الشيء فأضطر إلى تغيير الأسلوب واستخدام الطريقة ١١٤ وهي طريقة التخويف عن طريق النصيح .. فتخلص من نظراته الباردة وطلب لي فنجاناً من القهوة بعد نصف ساعة من دخولي مكتبه ثم حاول أن يكتسب مظهراً أبوياً مفتعلاً وقال لي : شوف يا فلان بيه « يقصد شخصي الضعيف » أنت شاب في مستقبل حياتك الصحفية وأحب أن أنصحك لمصلحتك أن الرئيس لا يحب أى هجوم على القطاع العام فحاول دائماً في موضوعاتك أن تبعد عن الهجوم على القطاع العام والهيئات والمستشفيات العامة : لأن الرئيس يستشعر دائماً وراءها محاولات للتخريب وإثارة البلبلة ! .

ولأنني وجيتي من الصحفيين الذين بدأوا العمل في هذه الفترة كنا قد تمرسنا على التعامل طويلاً مع هذا الأسلوب المطور للتخويف فقد قلت له بثبات : ياسيدي لا تخرب في الأمر ولا بلبلة .. إنها مجرد مناقشة لمشاكل مستشفى كبير يتعامل معه قطاع كبير من الشعب ومن أجل الصالح العام والرئيس نفسه هو الذي أثار المناقشة فأين التخريب إذن ؟ .

فرجع المسئول الخطير في مقعده إلى الوراء وابتسم لأول مرة وقال لي بلهجة العالمين ببواطن الأمور : هذا هو ما أريد أن أنبهك إليه .. إننا كمسؤولين قد نتحدث عن عيوبنا من باب النقد الذاتي لكنك تعرض نفسك للخطر أيضاً إذا توسعت في مناقشة هذه العيوب نفسها لأنك بذلك تشارك في

حملة التشهير التي يقودها خصومنا في الخارج .. والشاب الذكي هو الذي يتنبه إلى هذه المصيدة فلا يقع فيها فهل أنت شاب ذكي لا يأخذ بظواهر الأمور كما أتوسم فيك ؟ ! .

لكنني تجاهلت نصيحته الخبيثة وواصلت طرح أسئلتى عليه فعاد يسدد إلى سهام نظراته النارية مرة أخرى .. وطالت فتراتنا بين كل سؤال وآخر حتى بلغت في إحدى المرات ثلاث دقائق كاملة أمضيها صامتين كأن على رؤوسنا الطير وهو ينظر إلى مركزا عينيه على كأنه يحاول أن ينومني مغناطيسيا أو كأنه ينتظر تدخل السماء لكي تخلصه مني بسكنة قلبية مفاجئة تريحه من هذا التحقيق الذي يؤرقه واكتشفت بعد قليل أنه قد جرتني إلى حرب النظرات هذه بغير وعي مني فأصبحت أبادله النظرات الصاعقة بين كل سؤال وآخر وانتهت المقابلة وكلانا يمقت الآخر مقتًا شديداً . ويتمنى له أسوأ الأمنيات ولولا العرف والتقاليد والقيود الاجتماعية لنحينا أدب الحوار جانباً وتبادلنا اللكمات والضرب بالكراسي الطائرة . وتنفس الصعداء حين وجدت نفسي في الهواء الطلق بعيداً عن هذا الجو .

كان حديثاً صحفياً غريباً أجريته بالقلم واللسان والنظرات النارية لكن لماذا أتذكره الآن بعد كل هذه السنوات .. ولماذا أروى لك قصته ؟ هل لأحدثك عن ضرورة أن نضع الرجل الكفء المناسب في المكان المناسب دائماً ، أم عن أهمية أن يسود الحوار الحر الديمقراطي كل مواقع حياتنا بعيداً عن التسلط والتخويف والارهاب حتى ولو بالنظرات الوقحة ؟ أم لأقول لك إن الأمم لا تتقدم إلا حين تسودها حرية الرأي وحرية الفكر وحرية المناقشة بلا تطرف ولا إرهاب ؟ .

لا أعرف على وجه التحديد لكنني أعرف فقط أني منذ ذلك الحين وأنا

أكره أى مسئول يطل على الناس بوجه متجهم ونظرات نارية صاعقة ويحاول أن يفرض لنفسه هيبة صاعقة لا وجود لها ويعتبر مسئوليته شيئاً مقدساً غير قابل للمناقشة والحساب والانتقاد ، وأعتقد أنك معي في ذلك ...

.. إذن .. لماذا تنظر إلى هكذا ؟

## ارفعوا القبعات

لى أصدقاء أحبهم ويحبوننى وأحدثهم ويحدثوننى .. ولكن لا يراهم أحد  
غيرى ! .

وقبل أن تسيء الظن بعقلي أبادر بأن أقول لك : إن هؤلاء الأصدقاء  
يعيشون معى فى مخيلتى .. لأنهم بعض شخصيات الأعمال الأدبية والتاريخية  
التي قرأتها فأحببتهم من خلالها وسعدت معهم فى لحظات السعادة ورثيت لهم  
فى لحظات الشقاء . وحاولت أن أتعلم دروس تجاربهم وأتجنب عثرات  
طريقهم .

لكن من بين أصدقائى هؤلاء شخصية عجيبة حقا كثيرا ما تأملت أحوالها  
وأشفقت على نفسى فى بعض الفترات من مصيرها . وهى شخصية الموظف  
لبائس «جران» فى رواية الطاعون للأديب الفرنسى البير كامى الذى فاز  
بجائزة نوبل وانتهت حياته بحادث سيارة . فلقد كان صديقى فى الخيال  
(جران) يعيش وحيدا فى شقته ويمضى الليل ساهرا منكبا على عمل مجهول  
وعندما اقترب منه الطبيب «ريو» وأصبح من أصدقائه باح له بسرهِ العظيم !  
إنه يكتب أول عمل أدبى له ويحلم بأن يكون أديبا مشهورا ويمضى الليالى  
الطويلة ساهرا يكتب ويشطب ويريد أن يبلغ بعمله الأول قمة الكمال حتى إذا  
ما انتهى منه وقرأه الناشر .. نهض من وراء مكتبه ورفع قبعته وقال للعاملين

معه : ارفعوا القبعات تحية لهذا العمل الكبير ! وبسبب هذا الحرص البالغ  
على أن تكون البداية مبهرة يمضى الأيام يفكر فى كل حرف قبل كتابته ..  
ويحكى للطبيب شارحا معاناته : « قد يكون من السهل المفاضلة بين « لكن »  
و« و » ، لكن من الصعب أن تفاضل بين « و » و« ثم » أما ما هو أصعب  
من ذلك فهو أن تعرف هل من الأفضل استعمال « و » أساسا أم لا ! وهو  
يكتب ويبدل ويملا الصفحات الطويلة ثم ينحيا جانبا ويكتب غيرها وتمر  
السنوات بغير أن يكتب فى عمله الكبير سوى أول سطر منه :

« فى صباح يوم جميل من أيام شهر مايو ، كانت هناك فارسة جميلة  
تمتلى فرسا حمراء وتجوب بها غابة بولونيا المزهرة » . ولا تسلم الجملة نفسها  
من التغيير والتبديل مع شرح واف لسبب كل تعديل .. وتنتهى رواية  
الطاعون ، وصديقى البائس لم يكتب سواها ولم يبدأ خطوته الأولى فى طريق  
تحقيق الأهداف ! ..

وصديقى جران شخصية ألتقى بها كثيرا فى الحياة وأتذكرها فى مناسبات  
عديدة حين أتأمل أحوال كثيرين يتوقفون طويلا عند نقطة البداية وتملكهم  
الرغبة فى أن يحققوا لأنفسهم ما يريدونه لها من نجاح .. ويتشككون دائما :  
هل هذه هى البداية الصحيحة أم أن عليهم أن ينتظروا فرصة أفضل وأكثر  
توفيقا .

وأنا شخصا من المؤمنين بأن الحركة أفضل من الجمود .. وأن الحركة  
حياة والسكون موت ، وبأن كل الطرق وكل البدايات يمكن أن تؤدى إلى  
الأهداف مهما كان الطريق طويلا والبداية متواضعة ، لأن أهداف الحياة  
كالميادين الدائرية فى المدن تصب فيها شوارع عديدة ويستطيع من بدأ طريقه  
من أى شارع أن يصل إلى الميدان فى النهاية بكفاحه واصراره وثقته بربه وبنفسه .

والمسافر في الغابة إذا ضل الطريق فإن عليه كما يقول الفيلسوف الفرنسي ديكارت أن يواصل السير في خط مستقيم لا ينحرف يمينا ولا يسارا فإذا لم يبلغ المكان الذي ينشده فإنه سوف يصل بالضرورة إلى نقطة أفضل من التي كان فيها حين ضل الطريق وتملكته الحيرة ! .

وفي قصص حياة أعلام الفكر والأدب والحياة استهوتني دائما نقطة البداية التي انطلقوا منها إلى النجاح واكتشفت أنها كانت غالبا نقطة شديدة التواضع وفي اتجاه مخالف غالبا للمرفأ الذي رسيت فيه سفينة حياتهم وحققوا فيه نجاحهم وطموحهم . فلقد بدأ الكاتب الإنجليزي هـ . ج ويلز مثلا حياته صيبا في متجر متواضع يصحو في الخامسة صباحا فيكنسه وينظمه ويعمل فيه ١٤ ساعة كل يوم حتى كتب إلى ناظر مدرسته يشكو إليه حاله فعينه مدرسا بها فكان ذلك بداية الخير له وللأدب الإنجليزي فكتب أكثر من سبعين كتابا وحقق ما لم يحلم به من النجاح الأدبي والمادى .. وبدأ أشهر مغنى أوبرا عرفه التاريخ «كاروزو» حياته عاملا صغيرا في مصنع بمدينة نابولي الإيطالية ، وبدأ أديب الإنجليزية الشهير تشارلز ديكنز حياته صيبا مشردا يلصق الورق الذي يحمل العلامة التجارية على زجاجات البوية في مصنع صغير للطلاء ! وكثيرون غيرهم بدأوا الطريق من نقطة بداية شديدة التواضع .. وفي غير ميدانهم ثم حولوا مسارهم خلال رحلة الحياة إلى أهدافهم الصحيحة .. وهكذا ينبغي أن نفعل نحن أيضا أن نبدا أية بداية .. وأن نتمسك بأهدافنا ثم نلهث وراءها إلى أن نتحقق ولا بد أن نتحقق ذات يوم ، لكن مشكلة البعض هي أنهم يريدون أن يعكسوا الآية وأن يبدأوا حياتهم بما انتهى إليه الآخرون بعد رحلة العمر وكفاح السنوات ، ولقد توقفت طويلا أمام عبارة أجاب بها ملك الصناعة الأمريكية هنرى فورد حين سئل عن سر

احتفاظه بحيويته ونشاطه فقال : إنني لا أقف حيث يمكنني الجلوس ولا أجلس حيث يمكنني الاستلقاء ! وتعجبت كيف صنع نجاحه إذن ثم زالت دهشتي حين تذكرت انه سئل هذا السؤال وهو في الثمانين من عمره وانه أمضى قبلها ٥٠ عاما يعمل ١٦ ساعة كل يوم حتى صنع نجاحه .. فالراحة حق فعلا .. ولكن لمن تعب أولا وليس لمن يريد أن يبدأ حياته بها كما يفعل البعض . والاستمتاع بثمرات الكفاح حق أيضا .. ولكن لمن لهث وراء أهدافه ونام فوق حصانه كما كان يفعل نابليون بونابرت في المعارك ، والحياة في النهاية لا ترفع القبعات إلا للمكافحين الذي يقبلون المخاطرة ويحربون أكثر من بداية .. حتى تستقر أقدامهم على الطريق ويصنعون نجاحهم بالعرق والدموع والكفاح .

أما من يبددون أيامهم في التردد .. والمفاضلة بين حرف «و» و «ثم» .. وفي الاصرار على أن تكون البداية مبيرة ومرموقة .. وإلا فلا .. فلا يحنون سوى الحسرة والعجز .. وتنتهي رواية العمر عندهم بغير أن يكتبوا منها .. حتى السطر الأول ! .

## عصير حياتهم

قد تعجب أحيانا بتصرف إنسان في موقف من المواقف العصبية فتسأله : كيف اهتديت إلى هذا التصرف الحكيم ؟ فيجيبك قائلاً : من خبرة الحياة ! . وربما تسأل نفسك : ما هي خبرة الحياة هذه ، وفي أى الجامعات والمعاهد نستطيع أن نتعلمها ؟ فتعرف بالتجربة أنها لا تدرس سوى في جامعة واحدة اسمها جامعة الحياة وأنها الجامعة الوحيدة في العالم التى لا يستطيع أحد أن يزعم أنه أنهى دراساته العليا فيها لأن من يتخرج فيها لا يغادرها إلا إلى قبره . أما من لازال على قيد الحياة فسوف يبقى تلميذاً فيها إلى الأبد يضيف كل يوم إلى تجاربه جديداً ويتعلم الحكمة في أحيان كثيرة بعد فوات الأوان . فتسمع دائماً من يقول لك : لو رجعت الأيام ما فعلت كذا وكذا . وتقرأ لبطل رواية السمان والحريف لنجيب محفوظ مثلاً عبارة يقول فيها لزوجته : إن الإنسان يحتاج لأن يعيش حياته أكثر من مرة لكي يحسن التصرف فيها ربما في المرة الثالثة أو الرابعة منها ! .

أو تقرأ أيضاً لألبر كامى كلمته التى يقول فيها : يكفينى أن أتعلم بصبر علم الحياة الذى يفوق فى صعوبته ومرارته كل العلوم والفنون ، فتعرف من كل ذلك كم هي ثمينة تجارب الحياة .. وكم هو حالم من يدعى أنه قد فهم كل أسرارها وجمع كل خبراتها .

ولأنى تلميذ صغير فى جامعة الحياة فقد حاولت دائماً أن أتعلم من تجاربي وتجارب الآخرين .. واهتممت بوجه خاص بأن أقرأ كتب التراجم التى يحكى فيها أعلام الفكر والأدب والتاريخ قصص حياتهم وخلاصة تجاربهم ووجدت دائماً فيها الإجابة عن كثير من الأسئلة التى أثارت حيرتى .

ومن بين هذه الكتب كتاب صغير صاحبنى لأكثر من عشرين سنة قراءته خلالها عدة مرات وما زلت أقرأه من حين إلى آخر سجل فيه عدد كبير من أعلام الفكر فى مصر عصارة تجاربهم وصدر باسم « علمتى الحياة » وهو كتاب يستحق أن يقرأ وحيداً لو أعادت دار الهلال نشره من جديد . فمن هذا الكتاب تعلمت أو حاولت أن أتعلم أهم ما علمته الحياة هؤلاء الأعلام الكبار كما سجلوه بأقلامهم .

فقد علمت الحياة مثلاً الأستاذ عباس محمود العقاد ألا يستغرب لأى شىء يقع من الناس ضده ، لأنه كما قال قد عرف الناس منذ زمن طويل وعرف أن فيهم نقائص وغلطات وأنانية ، فإذا أصابه شىء من ذلك قال لنفسه : ولماذا الاستغراب ؟ .. ولماذا الألم ؟ .. ولماذا الشكوى وقد علمت أن فى الناس كل ذلك منذ زمن بعيد ؟ ! .

وعلمت الحياة الأستاذ توفيق الحكيم أن الحياة هدف وإرادة وأن على الإنسان أن يؤمن بأهدافه التى حددها لنفسه وأن يركز إرادته فى السير فى طريقها ، وليس بهم بعد ذلك إدراك النجاح لأن الأهم هو تحقيق الذات باستخراج ملكاتها وتأهيلها للمضى فى طريق الأهداف .. وفى هذا وحده تحقيق للذات واعلاء لها .

وعلمت الحياة الفقيه الدستوري الدكتور عبد الرازق السنهورى أن الحياة تصبح تافهة إذا خلت من مثل أعلى وأنه لابد للإنسان دائماً من مثل أعلى



يسير على هديه ويحميه من الانحراف والضياح ، كما علّمته أيضا أن حظوظ الناس غالبا متقاربة مهما بدا للآخرين من تفاوتها ، فلكل إنسان من حظه ما يسعده ولكل إنسان من حظه ما يشقيه . وهكذا تتساوى أقدار الناس غالبا من السعادة .

وعلمت الحياة الدكتور أحمد أمين أن درهم حكمة قد يكون أفضل من قنطار علم ، لأن العلم والثقافة وحدهما لا يؤهلان الإنسان للحياة بسلام مع البشر ، وإنما يحتاج الإنسان أيضا إلى الحكمة لكي تظل سفينته طافية فوق سطح الماء لهذا قد ينجح من هو أقل علما في حياته الزوجية والاجتماعية والعملية لأنه أكثر حكمة من غيره وإن كان أقل علما لأنه : « ... ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » صدق الله العظيم .

وعلمت الحياة المؤرخ الدكتور شفيق غربال أن الحياة جديرة بأن نحياها معها لقينا فيها من عنت أو صعوبات ، وأن أفضل خطة للعيش في أمان هي التزام « الوسط الذهبي » الذي تحدّث عنه فلاسفة اليونان .. لأن خير الأمور الوسط ، فلا إفراط ولا تفريط في أي شيء ، وإنما اعتدال في كل الشئون . وعلمت الحياة الدكتور محمد حسين هيكل أن رضا الضمير هو مفتاح السعادة وأن الإنسان لا يمكن أن يستشعر السعادة الحقيقية وهو مؤرق الضمير لفعل أو جرم ارتكبه .

وعلمت الحياة الدكتور زكي نجيب محمود أن حدّة العاطفة والانفعال معناها العجز في التفكير ، لأنه بقدر ما تتضح الحقيقة في أي شأن من الشئون بقدر ما تبرد الانفعالات تجاهها ، وهكذا فإن الشاب يستطيع أن يكون شيخا مجربا إذا تحكّم في انفعالاته وغلب حكم العقل على حكم العاطفة .

وعلمت الحياة الأديب طاهر الطناحي أن الدنيا كثيرة الفرص وأن الإرادة

تحقق المستحيل وأن الاعتماد على النفس ضرورة للنجاح وأن مصاحبة الكبار ومحاكاة تصرفاتهم الرشيدة والتشبه بأخلاقهم وقيمهم تعطي الإنسان سلاحا جديدا في مواجهة الصعاب .

وعلمت الحياة الأديب والعالم الدكتور أحمد زكي أن تربية الإنسان الأولى هي الأصل في تكوين شخصيته وفي نجاحه في الحياة وأنه من الأفضل أن يقوم الأبناء بتعليم أبائهم دوائر واسعة من المعارف والهوايات واللغات لكي تتسع أمامهم مجالات الاختيار والتفوق حين يشبون ، كما علمته أيضا أن الإنسان يحتاج إلى الصداقة وإلى الأصدقاء لأنه لا يستطيع أن يحيا وحيدا .. لا يحب سوى نفسه ولا يرى غيرها !

... هذا هو بعض ما علّمته الحياة لهؤلاء المفكرين والأعلام .. فإذا علمت أنك أنت ؟

## الفهرس

٥	آلام زعتر .....
١٠	صباح الخير أيها الحزن .....
١٤	أناشيد الأمل .....
١٨	صديقي لا تأكل نفسك .....
٢٢	أشواك الآخرين .....
٢٦	ولكنها لا تدور .....
٣٠	في المرأة .....
٣٤	من فضلك ساعدني .....
٣٨	أحلام الشباب .....
٤٣	احترس من الحوت .....
٤٧	صديقي .. من أنت .....
٥٠	يا أصدقائي .....
٥٤	أصدقائي الستة .....
٥٨	العقل في أجازة .....
٦٣	صباح الخير .....
٦٦	تأملات في الحديقة .....
٧٠	أيام من العمر .....

الطبعة الثانية

الطبعة الأولى

للمؤلف :

١٩٨٦ نفذ

١ - أصدقاء على الورق

١٩٨٧

٢ - يوميات طالب بعثة

١٩٨٨

٣ - هتاف المعذبين

١٩٩٠

١٩٨٩

٤ - صديقي لا تأكل نفسك

١٩٩٠

٥ - نهر الحياة

تحت الطبع :

٦ - صديقي ما اعظمك

٧ - العصافير الخرساء

٨ - دموع صامته

٩ - اصدقاء على الورق

الطبعة الثانية

٧٨	..... وفي الحديقة .. نسيت نفسي
٨٤	..... شاهدت الأمر
٨٩	..... النقط .. بين الحروف
٩٣	..... صباح سعيد
٩٧	..... مستقبلي ورأى
١٠١	..... حرب النظرات
١٠٦	..... ارفعوا القبعات
١١٠	..... عصير حياتهم

رقم الإيداع ٩٣/٧٨٧٥  
I.S.B.N 977 - 09 - 0164 - 4

### مطابع الشروق

القاهرة ٨: شارع ميرويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٢٧٥٦٧ (٠٢)  
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٤٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)